الفصل الأول

ضوابطُ قراءةِ بيانِ النّبوةِ ومعالمُها عند الشَّيْخ

لقراءةِ بيانِ النُّبوَّة عند الشّيخ ضوابطُ تتحكّمُ في حركةِ قراءتِه ، يدركُ هذه الضَّوابط من ينظرُ في حركةِ عقلِه حين تكونُ أمامَ سبلٌ يمكنُ أن يَختارَ منها في سعيهِ ، فتجدُه ينصرفُ إلى طريقٍ ، فتنظرُ ، فتجدُه غير مختارٍ في ما اصطفي بل هو ملتزم بما أملته عليْه ضوابطُ القراءة لبيان النُّبوّة .

وهذه الضَوابطُ منها ما هو رئيسٌ قائمٌ في مرحلةِ التَّصوّر(الفهم والتلقّي) ، ومنها ما هو قائمٌ في مرحلةِ التَّصويرِ (الإبانَة والإفهام) من تلك الضوابط :

الضابط الأول :

- العلم بحال النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وبحالِ رسالتِه ووظيفتِه وخصائصِه الخُلقية والسّلوكيّة واستحضار ذلك عند قِراءةِ بيانِهِ .

وهذا الضابطُ مرجعيته ما رواه ابنُ ماجه في (المقدمة) مِنْ سُننه بسنده عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : « إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْنَاهُ وَأَهْدَاهُ وَأَتْقَاهُ »[1].

---

(١) سبق تخريجه ص ١٦.

وهذا لا يكونُ إلاَّ مِن العِلم بعظيمِ شَأنِ النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وعظيمِ قدرِه ، واستحضار أن الفرق بين حديثِه ﷺ وحديثِ غيرِه من العالمين هُو الفرقُ بينه محمّدًا نبيًّا رسُولاً رحمة للعالمين بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا وبين كلٍّ مِن العالَمين .

الشَّيخ يلحُّ كثيرًا على استحضار هذا الضَّابط وهو يحدّثنا عمّا في بيان النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ليحاجزَنا عنْ التوقّف فِي التّسليم بما حمله بيانه ﷺ .

وكأنَّ الشَّيخَ يَستشعِرُ أنّ من مسؤوليتِه أن يحوطَ القارئ بما يستبْقيه في مقامِ حُسنِ التلقّي عن النبيّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ .

وممّا قاله في هذا قولُه : « لا تهملْ ، ولا تغفلْ جانبَ الهدايةِ والرّحمةِ ، وأنت تقرأُ ما تقرأُ فِي كلام الله سُبْحانَه وَتَعالَى وكلام رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وكيف يتعهّدُ الإنسان؟

وكيفَ ينزعُه من مزالقِ الخساسَةِ ؟

وكيفَ يرتقِي بِه إلى مدارجِ القيمِ النبيلة ؟

وأنّ هذه رسالةُ الدّين ، ورسالةُ الخالقِ إلى خلقِهِ . . . » [1]

هذا الضَّابط إذا لم يكن قائمًا قيامًا لازمًا لا يغفلُ عنه البتّة انحرفتْ حركةُ التَّلقَّى إلى ما لا يلتقِي مع غاية بيان النّبوّة . ذلك أنَّ لبيان النّبوَّة غاية مَن لم يضعْ عينَه عليها في جميعِ حركةِ تلقيه وفهمِه يكادُ يقعُ في معرَّة التقوّل على سيّدنا رسُولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ تلك الغايةُ تتمثلُ في تحقيق عزَّة المرءِ في كمالِ عبوديتِه لله تعالى واستسلامِه لأمرِه ونهيِه استسلامَ محبةٍ وتشرَّفٍ .

---

(١) شرح أحاديث من صَحيح مسلم : ٥٢/١ .

ومن يُحسن البَصرَ في حركةِ الشَّيخِ وهُو يتلقّى بيانَ النّبوة يبصرُ هذه الغايةَ نصبَ عينيْهِ ، وهو يُسافر في منازل التلقّي والفهمِ .

من هذا ما تراه في قولِه : « لمّا اقتربتُ من كلامِ سيّدنا رسول الله ﷺ بالتَّحليلِ وجدتُ كلامَه عليْهِ السّلامُ يقُولُ لنا بعد ما رأى الذي نحنُ فيه ، وأنّه عليه السّلامُ كأنّه يضعُ الدّواء لأدوائنا ، وكأنّه بيْننا ، وينادِي فينا بِما يُخلصنا مِن الأهوالِ المحيطةِ بنا ، رأيته عليْه السلامُ يدعُونا إلى الحبِّ بعْد ما رأى البغضاءَ تتوقّدُ فِي صُدورنا يقُول لنا : لا يُؤمنُ أحدُكمْ حتّى يحب لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسِه ....

ولا تظنّ انّي أبالِغُ ؛ لأنّ مقامَ رسُول اللهِ ﷺ أجلُّ فِي نفسِي مِن أنْ أتزيّدَ لَه... » [1]

ويقُول مبينا عن باعثه على ما اختاره من أحاديث رسُول الله ﷺ « والأحاديثُ الّتي كتبتُها فِي كتابِي هذا ، والكتابِ الّذي قبلَه لَمْ تكنْ اختيارًا لِفضلِ بعضِ كلامِهِ علَى بعضٍ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وإنّما كنت أختارُ منها ما هو أقربُ إلى قضايانا ؛ لأنَّهُ عَلَيْهِ السّلامُ تكلّم للأجيالِ كلها فِي الأزمنةِ كلّها ، وفِي الأمكنةِ كلّها ؛ لأنّه عَلَيْهِ السّلامُ بُعثَ لِهؤلاءِ جميعًا ، ولكلِّ جيلٍ قضَاياه ومشاكِلُه ، ولذلك كان كلامُه عَلَيْهِ السّلامُ ممسِكًا دائمًا بالجوهرِ الذي هوأقربُ إلَى فِطرةِ الأشياءِ ، وليْسَ مُمسِكًا بالْعرضِ المتغيّرِ . . .

ويسْتطيعُ أهلُ البصِيرةِ ، وأهلُ العلمِ بِكلامِه عَليهِ السّلامُ أن يَسْتخرِجُوا الشّفاءَ والعلاجَ والحلولَ لقَضَايا زَمانِهِمْ مِن كلامِهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وليسَ هذا « دروشةً » وَإنّما مَنْ عرفَ كلامَه عَلَيْهِ السّلامُ يَعرِفُ ذلِك ، ولَو كانَ غَيرَ مسْلِم » [2]

---

(١) شرح أحاديث من صَحيح مسلم : ١/٧، ٨ .

(٢) المرجع السابق :٢/٦١٢، ٦١٣ .

هذا بصر بحال رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ مبينًا عن الحق والخيرِ ، الذي تستقيم عليْه أمر الحياةِ كلها في كلّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ من البشرِ ، فكان صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يتخذ منهاجًا فِي تبيينه يجعل منه خالدًا لا تنبُو عن سياقٌ من سياقاتِ الحياة ، ولا يفتقد كل من الأحوال ما فيه صَلاحه .

وهذا من الشيخ بصر بحالِ رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ أعانه على أن يتخذ طريقه الأقوم فِي تلقّيه . في ضَوء واقعِ التّلقّي .

ويقُول : « إنّك لترَى جانبًا آخرَ من جوانبِ الحديثِ تبثّ في الشّعبِ روحَ المحبةِ والتساندِ والتآلفِ والتقاربِ حتّى إنّ حبّك للناسِ شرطٌ مِن شُروطِ الإيمانِ الصّحيحِ ، وأن تحبّ لأخيك ما تُحبُّ لنفسك ، وليس المرادُ بأخيك أخوةُ النّسبِ ، وإنّما الأخوةُ فِي الوَطن الذي يجمعُ غيرَ المسلمين ؛ لأنّ غيرَ المسلِمين الَّذين بيْننا لهمْ ما لَنا ، وعليْهم ما عليْنا . . »

الشّيخُ يريد هنا المواطن مسلمًا أو مسالمًا غير مسلم ، ولا يريدُ المتواطئ مسلمًا وإن كان ابن أمك وأبيك أو غير مسلم ، وفرق شسيع بيْن المواطن والمتواطئ . هو الفرق بين التآخي والتعادي . المواطنةُ وحدها لا تحقق الأخوة ، بلْ لا بد معها من المسالمةِ ظاهرًا وباطنًا ، كلَّ من سَالمك من أبناء آدم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في أيّ بقعةٍ من الأرض هو أخوك في الآدميَّةِ . وهي الرَّحم الوثيق . « . . . النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ »[1].

والتآخي على درجات :

تآخٍ في الدّين هوأعلاها

---

(١) رواه أبو داود في«الأدب» من سننه ، والترمذي في « المناقب» من جامعه ، وأحمد في مسنده من حديثِ أبي هريرة صَححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (رقم : ٣٢٧٠) وفي السلسلة الصحيحة (رقم : ١٠٠٩)

ثُمَّ تآخٍ في النسبِ القريب (الرَّحم)

ثمَّ تآخٍ في الوطن

ثمَّ تآخٍ في الإنسانية وأهو أعمّها .

ولكلِّ درجةٍ من هذه الدَّرجات حقّ لا يسقطه إلا الاعتداءُ على الدرجةِ الأعلى .

لا يَسقط حقُّ «التآخي» في الإنسانية إلا إذا تحقق اعتداء على أخوة الوطن وما فوقها ، ولا يسْقط حقّ الأخوة في الوطن ، إلا إذا تحقق اعتداء على الأخوة في النّسبِ القريبِ وما فوقها . . . فإذا ما اعتدى مصري على مسلمٍ هنديّ ، سقط حق الأخوة في الوطن ، في مقابل حقّ الأخوة في الإسلام . فالإسلام هو الوطن الأعلى ، والإنسانية هي الوطن الأرحب . ذلك منطق العدل

هذا التراتبُ يضبطُ حركةَ الحياة ، فلا يكونُ اعتداءٌ على مسالمٍ ، وإن بَعُدَ به الدّين أو النسبُ أو الدّار .

على كلِّ مسلم أن يكونَ أحرصَ على أن يأخذ هو على يد أخيه المسلم الظالم نفسِه وقومَه ، وألا يبتهج بتولّي غيره من أعداء الإسلام الأخذَ على يد ذلك الظالم ، ، فذلك لا يليق بمسلم ، ذلك أنَّ غيرنا لا يأخذ على يد الظالمِ فينا من كبارنا من أنّه ظالمُ لنا بلْ لأنه ليس خاضعًا لهم ، وإلا لو كانوا كذلك فلم يستبقون من هو أشدّ ظلمًا لقومه ممن يقتلونه أو يسْلمونه ؟

الحقيقةُ التي يجب أن تبقَى نصب أعيننا وفي سويداء قلوبنا أنّه ما كان أعداء الإسلام والعروبة يومًا دافعين عنّا ظلم ظالمٍ لظلمه لنا ، بلْ لتمرده عليْهم ، ورغبتهم في إحلال من هو المستعذبُ ذلهم له ، المتزلف لهم على نحو ما ترى عينك وتسمع أذنك .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ (آل عمران:١١٨-١٢٠)

* * *

ويقُول شُيْخنا في شرحه حديث «لايزني الزّاني حين يَزني وهُو مؤمنٌ ...»: «الغضبُ الذي في هذا الحدِيثِ هو غضبٌ يَحمي اللهُ به النَّاسَ من النّاسِ، لأنّه كفٌّ وزجرٌ للفاجرِ المجترئ على أعراضِ النَّاسِ . . . .

وهذا الجانبُ من كلامِ اللهِ وكلامِ رسُولِه ﷺ يَجبُ أن يكونَ هناك تركيزٌ على بيانِه ؛ لأنّ الدّين حمايةٌ ورعايةٌ وصلاحٌ للجماعةِ، وأمنٌ وأمانٌ في الجماعةِ، وأمنٌ وأمانٌ للفردِ، وليس تكاليف تعوقُ حركةَ الحياةِ، وتحدُّ مِن حريّةِ الإنسانِ، وتعودُ به إلى عُصُور التّخلّفِ والظلماتِ كما يُروّج أعداؤه، وإنّما كلُّ أمرٍ فِيهِ جلبٌ لِمصلحةِ النّاسِ، وكلّ نَهي فيه دفعٌ لِمضرةِ عَن الناسِ»[1]

مجملُ الأمر أنّ العقلَ المُسلم خاصةً والعربيّ عامة لا يفصم بيْن الكلمة وصانِعها أو المُبين بها، ولا يتشاغلُ عن حال المُبين بها العام وحاله عند الإبانة بها، كما لا يبالغُ في الاستهتار بالعلم بحال المُتكلم عن الكلمةِ، فإنَّ العرفان بحال المتكلم بها العام، وحاله عند الإبانةِ بها إنّما هو مفتاح للفهم وضابطٌ

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مُسْلِمٍ : ١/٢٧، ٢٨ .

لحركته . فليست الكلمةُ في لسان النّبوّة هِي هِي في لسان غيرِه ، وهذا أصلٌ من أصول منهج التلقّي والفهم[1].

* * *

الضابط الثّاني :

انبِثاقُ البيان النبويّ من البيان القرآنيّ انبثاقَ المُبيّن من المبيَّن انبثاقًا قد تتجلَّى معالمه حينًا وقد تخفى ملامحه أحايين كثر .

يهدينا الشيخُ إلى ما بيْن بيان النبوة وبيان الله سُبْحانَه وتَعالَى من علاقة تظهر حينًا ، وتخفَى حينًا ، وما يكونُ منه حين تتلبس العلاقة بالخفاءِ يقُول : « علاقةِ كلامِ سّيدنا رسول الله ﷺ بـ« الكتاب » الذي أنزلَه الله تعالى على قلبِهِ أراها تظهرُ وتختفِي ، فَإذا خفيتْ ولَحظتُها مِن بعيدٍ تلحُّ عليّ نفسِي أن أشيرَ إليْها ، وتقُولُ لِي : لو احتَمَلَتِ الخطأ مرّاتٍ ، فلعلّها تحتملُ الصوابَ مرّةً أو لَعلّها تنبّه مَن يسْتطيعُ أن يجدَ لها منزَعًا فِي « الكتاب » غَيْرَ الذي وجدتَ »[2].

والشيخ كلفٌ بإبرازِ هذا الانبثاقِ .

وكأنّي به يرمِي إلى أنّ مَن يحومُ حول حِمَى التَّوقفِ فيما يحملُه بيانُ النّبوّة إنّما هُو في الحقيقةِ مُتوقفٌ فيما يَحملُه البيانُ القُرآنيّ .

وتلك الَّتي لا يُطيقُ مسلمٌ أن يحدِّثَ بها نفسَه فضلاً عن أن يتحدَّثَ بها مَهما انطلقت به أغربة التّحرّر وحومتْ . وكلّ مَن يلمزُ في بيانِ النّبوة هو لامحالة ينبذ في البيان القرآني سواءً بسواءٍ .

---

(١) الذين يأخذون بما يسمى بـ« موت المتكلم/ المؤلف » إنما ينسلون من القول بـ(موت الإله) بمفهومه العام : موت من له سلطان على الشّيْءِ ، وهذا منطلقٌ إلحاديّ ما يكون للعقلِ المسلم البتة أن يأخذ من ثمار شجرته الخبيثة شيئًا . .

(٢) شرح أحاديث من صَحيح مسلم : ٦٢٣/٢ .

وكلُّ من يتوقف في بيان النبوة بعد أن يبين له بيانا صحيحًا صريحًا وثاقة نسبة ما توقفَ فيه إلى سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ هو لا محالة متوقفٌ في بيان القرآن دافع له ، ومن فعل فقد كفر . كفرًا يخرجه من الملّة إلا من تاب توبة صادقة صريحةً يجهر بها جهرَه بالتوقف ، وآمن بأن ما قاله رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ هُو الحقُّ الصَّريحُ ثُمَّ عملَ صالحًا .

فمَن يتلقّى البيانَ النبويّ في غفلةٍ أو تغافلٍ عن البيانِ القُرآنيّ هو لا محالة يهوِى مِن حالقٍ . فكلُّ ما حملَه البيانُ النبَويّ له أصلٌ في البيان القرآني فحين يدقّ هذا الأصلُ يبصرُه أصحابُ الفراسة البيانيّة . ولكل ميدانٍ فرسانُه .

وهذه الحقيقة جهَرت بها الحكمةُ في الكتاب الأساس «رسالة» الشافعي إلى عبد الرحمن بن المهديّ الّتي نَسق فيها أصولَ الفهمِ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعن رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وأصول إنزال بيان الوحي على الواقعِ وضبطه به ، وإخراجه من حَرج حركة الحياةِ المُتجدّدة[1].

---

(١) ينظر الرّسالة . تأليف الشافعيّ تحقيق : أحمد شاكر : مكتبه الحلبي ، مصر . ط(١) عام : ١٣٥٨هـ ـ : ص ٨٩-٩٣ ، فقرة ٢٩٣-٢٩٤ ، ٢٩٨-٣٠٥ ، ص ١٠٣-١٠٥ فقرة : ٣٠٧-٣٠٨ ، و ص ١٣٩ فقرة : ٣٩٧ ، و ص ١٤٦ فقرة : ٤١٩ ، ص ١٩٨ فقرة : ٥٣٧-٥٣٩ ، ص : ٢١٢-٢١٣ فقرة٥٧٠-٥٧١ ، ص٢٢٢-٢٢٤ فقرة ٦١٣
والموافقات في أصول الشريعة تأليف أبي إسحاق الشاطبي . تعليق وشرح عبد الله دراز ، خرج أحاديثه أحمد السيد سيد أحمد على . ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة مكتبة الأسرة ، تراث . نشر سنة ٢٠٠٦م ، ٤/١٠ ، ٤٦ . ٤٨
وحجية السنة للعلامة عبد الغني عبد الخالق . ط(١) عام ١٤٠٧هـ ألمانيا الغربية ـ شتوتغارت . المعهد العالمي للفكر الإسلامي . واشنطن . أمريكا . نشر دار القرآن الكريم . بيروت . ص ٤٨٥ وما بعدها .
والسنة بيانًا للقرآن للعلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الله الخولي الأستاذ في جامعة الأزهر . .

وهذا ما تراه قائمًا في صنيع الشيخ . يقُول :

« كلٌّ بيانِهِ ﷺ بيانٌ للكتابِ ، وراجعٌ إليْهِ ، وأنّه ﷺ حين يَقُول : « لايَزنِي الزَّانِي حين يزني ، وهو مؤمنٌ » يقُولُ هذا ، وبيْن عينيْهِ كلّ الآياتِ المتعلّقة بهذا الشّأن ، وكلامُه عليْهِ السلامُ والحالُ كذلك يعنِي أنّ بيانَه بيانٌ لِكلّ المتفرِّقاتِ القُرآنيّةِ ، وكلُّ الآياتِ القُرآنيةِ الّتي ذكر فيها هذا الموضُوع ، وهذا يجعلنا أمامَ بيانٍ له خُصُوصية خاصّة ؛ لأنّه ليس تفسيرًا حرفيًّا لآيةٍ ، وليس تفسِيرًا بعيدًا ، ولا تفسيرًا مباشِرًا أو غيرَ مباشرٍ لآيةٍ ، وإنما هو صَفوِ الصّفوِ وخُلاصة الخُلاصَةِ لِكثيرٍ من الآياتِ ، وغالبًا ما تكونُ هذه الآياتِ ليستْ إحداها نصًّا للّذي نصّ عليْهِ البيانُ النّبوي »[1]

وقد قال من قبلُ في شرحه أحاديث من صَحيح البخاري : « وارتباط كلام رسول الله ﷺ بالمعاني الخفية فِي الآياتِ القرآنيةِ هو وحده وجه من وجوه إعجاز هذا الدين ، لأنَّ تفسِيرَ النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وبيانه للقرآن بوحي »[2]

قوله أعزّه الله تعالى : « يقُولُ هذا ، وبيْن عينيْهِ كلّ الآياتِ المتعلّقة بهذا الشأن » يُمكن أن يفهم منه العَجلانُ أنَّ الشَّيخَ يذهبُ إلى أنّ بيان النُّبوَّة استخلصَه النَّبيّ ﷺ بنفسِه من القرآن . فيتسارعُ إلى فهم أنَّ الشَّيخ لا يقُول بأنّ بيان النُّبوَّةِ وحيٌ ، أوحى الله تعالى إلى رسُوله ﷺ ما يحمله بيانه . فهو نبويّ من حيثُ ما يحملُه من معاني الهدى ، وينسب إلى النّبيّ ﷺ مِنْ جهةِ تصويره معاني الهدى التي أوحيت إليْه بطريقٍ غير الّذي وحى إليْه بِها القرآن ، فمعانيه

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٤١/١

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري : دراسة في سمت الكلام الأوّل . لشيخنا . ط (٢) عام : ١٤٣١هـ . نشر مكتبة وهبة . القاهرة : ص ٧٧

وإن كانت حقًّا موحَى به إلا أنّ بيانَه عنها لا يَصلُح أن يُصلَّى به ، وليس له من المثوبة عند قراءته كمثل التي لقراءة القُرآن . . .

الشيخُ يرمِي بمقاله هنا إلى أنّ الذي في بيان النبيّ ﷺ في موضوعٍ ما ، هو حاضرٌ على وجهٍ آخر في البيان القرآنيّ ، فأنت تتلقى هذا المعنَى من معاني الهُدَى على نحوَين لكلّ عملُه فيك ، فهو معنى حقّ والبيانان القرآنيّ والنَّبويّ عنه متطابقان من حيثُ إنّهما وحيٌ . فلا يتعارضُ بيانٌ صَحيحُ النّسبةِ إلى مقامِ سيّدنا محمد ﷺ مع القرآن . وأنَّ عليك أن تقرأَ كلاًّ على نحوٍ يتواءَمُ معَ مقامِ قائلِه . فجلالُ الألهيّة وجمالُ الرّبوبيّة هو الطَّابع القائمُ في بيان القرآن ، و« الصّدق والأمانة » و« الرَّأفة والرَّحمة » هما الطابعُ القائمُ في بيان النّبوّة .

والشيخُ هنا يهديك إلى أنّ النبيّ ﷺ ، وهو يصرّفُ البيان عن المعنى الّذي أوحي إليْه والّذي هُو متآخ مَع ما في القرآن الكريم إنما يأخذُ بيانُه بيدك إلى المعنى القرآني .

هو يحملُك إلى القرآن ، لتقف على البابِ فَيترعُ قلبك بِجلالِ الألوهية وجمالِ الرُّبوبية . هو مفتاح باب الدخولِ على ربّك سُبْحانَه وبِحمدِه . هذا ما أفهمُه من قوله أعزّه الله : « وإنّما هو صَفوِ الصّفوِ وخُلاصة الخُلاصَةِ لِكثيرٍ من الآياتِ ، وغالبًا ما تكونُ هذه الآياتِ ليستْ إحداها نصًّا للّذي نصّ عليْهِ البيانُ النّبوي » وهو في كتابٍ سبق يهدِي إلَى أنّ بيانَ النّبوَّةِ ، وهُو وَحيٌ يُوحَى لَم يكنْ ذلك بمانِع أن يكونَ هذا البيانُ النَّبويُّ ذا وَسْمٍ يُعرفُ به وخُصوصيَّةٌ تدلُّ عليْهِ « لا مِنْ جهةِ طَابَعِ النّبوّةِ الّذي هو ظاهرٌ جدًّا في كلامِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وإنّما مِن جهة ما يتميّزُ بِه الكلامُ وما يكونُ له بِه سَمتٌ وطريقٌ ومذهبٌ ؛ لأنّ الوَحْي مَعنًى يُلقَى فِي رَوعِهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ كما تلقَى المعاني في الصّدورِ ، ثُمّ يُحدِّثُ

عَنه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ببيانِهِ وطريقِه ومذهبِه ، كما يحدّث كلّ مَنْ وَجد معنًى في نفسِهِ بحديثِهِ الذي فيه طابعَه ومذهبه

فمسألة الوحي لاتمنع في البحث عن المذهب والطريق»[1]

قوله : «، كما يحدّث كلّ مَنْ وَجد معنًى في نفسِهِ بحديثِهِ الذي فيه طابعَه ومذهبه» المشابهة في أصل الأمر ، وليس في مستواه . ففرق بيْن أفق الإبانة عمَّا في صدره صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وأفق إبانة أعظم البلغاء في هذه الأرضِ عما في صَدرِه ، فقلب يعمرُه الوحي ليس كمثلِه قلبٌ يسكنه مفترًى من ذات صَاحبه ، ومقتصدٌ منه بشرًا مهما بلغ علمه وذكاءُ قلبه ، فمثله إنّما حِليتُه النقصُ والخطأُ والخطلُ ، مهما اجتهدَ في تصْفيته وحِياطته .

وهذا من الشيخِ إعْرابٌ عَنْ أن ما يلقَى في صدر رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ من الوحي إنما هو أصلُ المعنى ، ومادته ، وحقيقته ، أمَّا نظمُ المعنَى وترتيبُه وتأليفُه وتآخيه ، فذلك صَنعة رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الَّتي مجلاها ما نسمَعُ من بيانِه ونقرأُ .

جوهرُ المعنى وحقيقتُه وحيٌ إلهيّ ، وصَنعتُه وتأليفُه ، وتصويرُه مِن النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ

وكأنّي بالشَّيخ أراد أن يدفَع الوهمَ عَنْ أن يذهبَ إلى أنّه إذا ما كان كلامُه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وحيًا ، فليس له منْه شيْء ؛ لأنّه لم يكن إلا حاملا ، وناقلاً ، فله شرف الصدق وأمانة الحملِ والنَّقل ، وليس له شرفُ صِناعة البيان[2].

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ البخاري (م . س). ص : ٥٠، ٥١

(٢) ذهب أفلاطون إلى أنّ الشعراء كالأنبياء ليس لهم في ما جاءوا به ما يُنسبٌ إليهم ، ولذا حاجزهم عن دخول المدينة الفاضلة ، فقد كان يذهبُ إلى أن ما يقوم في عقل الشاعر إلهامٌ من الآلهة وما يقوم في قلبِ النبيّ وحي منها ، وكلّ من النبيّ ==

كأنّي بالشَّيْخ يذهبُ إلى أن يُحاجز بين هذا الوهمِ وبيْن قلوبنا ، فَدلّنا على أنّ للرسُولِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ عملا في بيانِه ، هو النّظم والتّأليف والصِّياغة والتَّصويرِ ، وأنّ الذي أوحي إليْهِ هو مادَّة المعنى وحقيقته وجوهره ، الَّذي هوأشبه بالمادَّة في يد الصّناعِ ، فكما أنَّ الصائِغ ليس له يدٌ في الذّهب الّذي يصنع منه بعبقريته ما يُدهشُ صَنعةً لا مادَّة ، كذلك رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لَه من بيانه نظمُه وترتيبه وتأليفُه وتركيبه وصِياغته وتصويرُه ونسجُه وتحبيرُه .

يذهبُ بعضُ أهلِ العلمِ إلى الاستدلالِ على أن الحديث النبويّ وحيٌ بقول اللهِ سُبْحانَه وبِحمدِه : (بسْمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم ﴿ **وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ** ﴾ (النجم:١-٥) بناءً على أنَّ الضمير في قوله تعالى ﴿ **إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم:٤) للحديث النبوي ، وأن جبريل كان ينزلُ بالسنة كما ينزل بالقرآن . فعن حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ ، قَالَ : « كَانَ جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِالسُّنَّةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ »(١).

==والشاعر ليس له من الأمر شيْءٌ ، فلا فضيلة لأيٍّ منهم على غيره إلا أنّه اختير من الألهة لما هو له . (ينظر : النقد الأدبي الحديث تأليف محمد غنيمي هلال . نشر : دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٧٩م . ص٢٨، ٢٩)

وهذا من أفلاطون نظر فطير . لأنّه لم يحدد مناط الإلهام للشعراء ، ومناط الوحي للأنبياء ، ولم يحدّد مناط الصنعة في الإبانة والإيصال والإفهام عند كل .

ولو أنَّ الذي ذهب إليْه أفلاطون في شأن الشعراء له نسبٌ ما من الصّحة ، أوحامَ حولَ حِماها لما كان لشاعرٍ قطُّ أن يأتي بخطإٍ أو ماهو خداجٌ . أوَ يكون من الألهة إلهامٌ بخطإٍ ؟!!!

(١) أما القرآن فليس لرسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ منه شيْءٌ البتّة ، المعنى وصورته وأداؤه بل إن من أهلِ العلم من يذهب إلى أنّ رسمه ==

ضَمِنَ الوَحي لبيانه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ألاَّ يكون معناه مفترًى : (مُقتطَع ومُقتصَد) من ذات نفسِه البشرية صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، وإن كانتْ هِيَ النَّفسَ الصَّفاءَ والنقاءَ والطُّهر الأكملَ ، وإن كانتْ أشرفَ نفسٍ خلقها الله سُبْحانَه وَبِحمدِه وأنقاها ، ضمِن له الوحيُ أن يكونَ المعنَى في بيانِهِ هُو المعنَى الحقُّ الصّرفُ والخيرُ الكمال . الذي لا يتأتَّى أن يأتِيه الباطلُ قطُّ ؛ لأنه وحيٌ من العليّ الحكيم[1].

يقُول ابن القيم : « ثم قال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم:٤) فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل أي ما نطقه إلا وحي يوحى وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن ، فإنّه يعمّ نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحي يوحى »[2].

وإذا كان هذا شأن المعنى ، فإنه يقتضِي أن يكونَ نظمُه وتأليفُه وصِياغتُه وتصويرُه وتحبيرُه من هذا الباب شرفًا وكمالاً . فكلُّ معنًى يقتضِي صورتَه

==أيضًا توقيف ، وأنَّه أداة من أدواتِ الإبانة والإفهام . ومن ثَمَّ كانت القراءة نظرًا في المُصحف أفضل من القراءة غيبًا ، وكان النّظرإلى المُصحف عبادة ، وكانت الصُّحف التي يُرقَن فيها القرآن مقدّسة ، لا تمسّ إلا على طهارة . أكسبَ الرَّسمُ القُرآنيُّ الصحيفةَ الَّتي رُقنت فيها قدسيَّة مِن قدسيتِه ، فلَوْ لَمْ يكنْ ذلك الرَّسمُ ذا قدسيّة ، فكيْف تكونُ لما رُقن فيه . فكيف بقلبٍ رُقن فيه كتاب الله تعالى؟!!!

(١) الإبانة الكبرى . تأليف ابن بطة : عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري (ت:٣٨٧ هـ) تحقيق : رضا معطي ، وآخرين ، نشر : دار الراية للنشر والتوزيع ، الرياض ، ٣٤٦/١

(٢) التبيان في أقسام القرآن . تأليف : ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد (ت : ٧٥١ هـ) تحقيق : محمد حامد الفقي . نشر : دار المعرفة ، بيروت ، ص : ٢٤٥، ٢٤٧، وللتوسع ينظر : كتاب « الأم » تأليف الإمام الشافعي : أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس (ت : ٢٠٤ هـ) نشر : دار المعرفة ـ بيروت ، عام : ١٤١٠هـ . ١٣٦/٥، ١٣٧

ومنهاجَ الإبانةِ عنه ، وهذا يتحقق إذا ما كان حاملُ المعنى عمودَ شخصيته هُو الصّدقُ والأمانةُ في قولِه وفعلِه وحاله ، وكذلك كان صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

* * *

ممَّا حرصَ على بيان علاقته ببيان القرآن من بيان النبوة علاقة كلمة « وإنّي أنا النَّذيرُ العُريان » بآية فِي سورة « فاطر » يذهب إلى أن كلمة « نذير » هنا « تسْتدعِي فِي نفسِي كلمة « النذير » في سورة « فاطر » وخُصُوصا أن « النذير » هنا نذيرٌ بالهلاك والاستئصال ، و« النذير » فِي « فاطر » جاءتْ وَهُمْ يصطرخون فِي النارِ ، وهُم المذكورون فِي الحديث .

قال سُبْحانه : ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ (فاطر:٣٦،٣٧)

قوله عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « وإنّي أنا النَّذيرُ العريان » هو النذيرُ الذي جاءهمْ ، وقد عمّرهم اللهُ تعالَى بعد أن جاءَهم النّذيرُ عمرًا يتذكّرُ فِيه من يتذكرُ ، فكذبوا ، وهذه الطائفة التي كذَّبتْ في الحديثِ الشريفِ هُم الّذين يصْطرخون فيها ، وهذا ظاهرٌ عندِي »[1]

لعل الذي ساق آية سورة فاطر إلى نفسِ الشيخِ عند تدبره قول النّبي ﷺ ما في آية سورة (فاطر) من الاصطراخ ذلك الاصطراخُ الذي كان من النبيّ ﷺ ، وهو ينذرُهم في باكر الدّعوة على جبل أبي قبيس ، فكان من عمه ما كان . ﴿ **تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ** ﴾ (المسد:١).

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢/٦٢٣، ٦٢٤ .

وهو في شرحِه قول سيّدنا رسولِ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : « وإذا عاهد غدر » يقُول : « وَمصدرُ هذه الجملةِ فِي الكتابِ مثل قولِه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون:٨)

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاً ﴾ (النحل:٩١) وراجعْ ﴿ وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلاً ﴾ (النحل:٩١) وكذلك راجعْ أنّ العهد يمينٌ ، ولو قلت عهد الله كأنك قلتَ يَمين الله ، ومن مصادرها قَولُهُ تَعَالَى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون:٨)

وقد جاء هذا مقترنًا بِواجبِ الصّلاةِ ، فأشعرَ أنّ أداءَ ذلك يذكرُ مَعَ أداءِ الصّلاة »[1].

قوله : « وَمصدرُ هذه الجملةِ فِي الكتابِ . . . . » لا أفهمُ منه أنّ الشيخ يريد أن النبيّ ﷺ تدبّر القرآن ، فقام معنى (إذا عاهدَ غدر) كما يقوم المعنى في صدر أحدنا حين يتدبر آية ، فيكونُ رافدُ المعنى إلى قلبه هو الآية ، وأداة حضورها فيه التدبّر .

القولُ بهذا قد يفهم منه أن ما يقوله رسُول الله ﷺ هو فهمُه هو في سياقه الزَّماني والمكانيّ والحضاري ، وأنّه إذا تغيّر الزّمان والمكان والحضارة كان لنا أن نفهم ما يقوم مقام فهمه ، فتكون لنا سُنة كما كانت له سُنّة .

وهذا ما ينغِق بِه « اللبراليّون » . يزعمُون أنَّ السّنة النّبويّة إنّما هِي فهمُ النبيّ ﷺ للقرآن ، في سياقِه الزَّمانيّ والمكانيّ ، فهُي لذلك غيرُ ملزمةٍ لِمَن كان في غيْرِ سياقِهِ الزّمانيّ والمكانيّ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٥٨/١ .

كـذلك يحتَـالون في نعومـة الأفعَـى إلى إبطـال السّـنة إيقَاعًـا للأغـرار مـن المسْلِمين[1].

الشيخ لا يمكنُ أن يكون هذا مأمّه ومقصدَه .

هُو يريدُ فيما أفهمُ أن يقُولَ لك إنّ ما قالَه سيّدنا رسُول اللهِ ﷺ له حضـورٌ في بيان القرآن حضور المَصدر ، ليلفتك أنّـهما متآخيان قـي تقريـرِ المعنـى . لأنهما من مشكاةٍ واحدةٍ هي الوَحْيُ وأنّ ما قاله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ هو تبيين لمـا جـاء في القـرآن وِفـق منهجيّـة في التبـيين خـاصـة برسُول الله ﷺ لن يتأتّى لأحد من النّاس أجمعـين أن يـأتي في تبـيين القـرآن مثل ما جاء بِه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

---

(١) من أصول أبي حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنه (ت : ١٥٠هـ): قوله « آخذ بكتـاب الله ، فمـا لم أجد فبسنة رَسُول الله ، فإن لم أجد في كتـاب الله ولا سـنة رَسُـول الله ، أخـذت بقـول أصحابه ، آخذ بقول من شئت منهم ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، فَأَمَّا إِذَا انتهى الأمر ، أَوْ جـاء إلى إِبْـرَاهِيم ، وَالشَّـعْبِيّ ، وابـن سـيرين ، وَالحَسَن ، وعطاء ، وَسَعِيد بن المسيب ، وعـدد رجـالا ، فقـوم اجتهـدوا فأجتهـد كمـا اجتهدوا»

كتاب : الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضـي الله عنهم . تأليف : أبو عمر ابن عبد البر النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ) نشر : دار الكتـب العلمية ـ بيروت . ص ١٤٢

وتاريخ بغداد . تأليف : الخطيب البغدادي (ت : ٤٦٣هـ) تحقيق : بشار عواد معـروف نشر : دار الغرب الإسلامي ـ بيروت . ط (١) عام : ١٤٢٢هـ . ١٥/٤٠٥)

وتهذيب الكمال في أسماء الرجـال ، تـأليف : أبـي محمـد القضـاعي (ت : ٧٤٢هـ) تحقيـق : بشـار عـواد معـروف . نشـر : مؤسسـة الرسـالة ـ بـيروت . ط (١) عـام : ١٤٠٠هـ . ٢٩/٤٤٣ .

الفرق بين التبين النبوي والتفسير

ليس تبيينُه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ القرآن هو تفسيره . فالتّفسير أدنى من التبيين النبويّ فعلاً وأثرًا وأضيقُ مجالاً وأقرب سفرًا :

التبيين النبويّ إبصارٌ لجوهرِ الأشياءِ وحقائقِها .

التبيين النَّبويّ يُقيمُك في الشَّيْءِ ليقيمَه فيك .

والتَّفسيرُ عند غيرِه يكشفُ لك الغطاءَ ، وأنت على قدرِ بصرِك أو بصيرتِك .

لم يكن سيّدنا النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ مفسرًا للقرآن . على نحو ما يفعل أهلُ العلم . كلاَّ كان مبيّنا . وقد بيّنت لك الفرقُ ، فالزم .

وهذا وجهٌ من وجوه معنى المِثلية في ما رواه أبو داود في كتاب (السَّنة) من سننه بسندِه عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ .

أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِىِّ وَلاَ كُلُّ ذِى نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إِلاَّ أَنْ يَسْتَغْنِىَ عَنْهَا صَاحِبُهَا .

وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ»[1].

---

(١) يقول أبو سليمان حمد الخطابي : « قوله أوتيت الكتاب ومثله معه يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما أن يكون معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو ، ويحتمل أن يكون معناه أنه أوتي الكتاب وحياً يتلى ، وأوتي من البيان أي أذن له أن يبين ما في الكتاب ويعم ويخص وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس له في الكتاب ذكر فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن» . ==

ليسَت مثلية في منهاجية إبانةٍ وتصويرٍ معان وإفهام متلقين ، فيكون النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ قد أتى بمثل سورةٍ من القرآن ، فيبطل التحدّي المطلق . كلاَّ ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ (يونس:١٥)

هي عندي مثلية غاية ، ومثلية تشريعٍ ومثلية فعل فينا . وهي عندِي أيضًا مثلية إعجازٍ من غيرِ تحدٍّ بها . .

فهذه المثلية ليْستْ مطلقة حتّى لا يهرف غِرّ بأنّ البيان النبويّ بهذا الوجه يُبطل أن يكون القرآن معجزًا .

ولو أنّه أحسن التلبث والفهم لقَول النَّبيِّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « أَلاَ إِنِّى أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » وفقه معنى (أوتيت) لأدرك أنه ليس له من الأمر شيءٍ : أوتي شيئين معجزين :

== معالم السنن ، : شرح سنن أبي داود ، تأليف : أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي(ت : ٣٨٨هـ) . نشر : المطبعة العلمية . حلب . ط(١) عام : ١٣٥١ هـ: ٢٩٨/٤

ويقُول الطيبي : « وقيل : « ومثله معه » أي أحكاماً ومواعظ وأمثالاً تماثل القرآن في كونها وحياً ، أو كونها واجبة القبول ، وتنزه نطق رسوله عن الهوى ، وأمر بمتابعته فيما يأمر وينهي ، فقال عز من قائل : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ (النجم:٣) وقال الله تعالى : ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟** ﴾ (الحشر:٧) أو يماثله في المقدار ، ويدل على هذا قوله ﷺ في حديث العرباض التالي لهذا الحديث : (إنها لمثل القرآن أو أكثر) » .

شرح مشكاة المصابيح المسمى بـ« كشف عن حقائق السنن » تأليف شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت : ٧٤٣هـ) تحقيق : عبد الحميد هنداوي . نشر : مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ـ الرياض . ٦٢٩/٢ .

الأوّلُ : تحدي به وهو القرآن وجعله آيته على أنّه النبيّ المرسل من عند اللهِ سُبْحانَه وبِحمدِه

والآخر : وهو حديثُه الشريف معجزٌ في نفسِه غير متحدٍّ به . ولكن لو أراد أحدٌ أن يأتي بمثل هذا الآخر غير المتحدَّى به لعجز عجزًا يفضَحه علَى رؤوس الأشهاد . .

* * *

الضابط الثالث :

« مراقبة السّياق القريبِ والبعيد للمقروء من بيانِ النّبوة .

تأصيل منهج الشيخ في مراقبة السياق :

نبت الشيخُ في رياضِ الأزهر الشّريف ، وكان أبناءُ الأزهر يُعلَّمون في باكر ما يتلقون أنّ حقيقة البلاغةِ من ثلاثةِ أصُولٍ كلية كلُّ واحدٍ منها يُقيم في قلبِ طالبِ العلم أنّ علمَ البلاغة العربيّ علمٌ سياقيّ بضربيه : سياق المقال وسياق المقام ، وليس علمًا معياريًّا مجرّدًا مِن ملاحظة السِّياق فِي جميع أمرِه :

الأول : البلاغةُ مطابقةُ الكلام الفصيح مقتضَى الحالِ .

والثّاني : لكلّ مقامٍ مقالٌ

والثالث : لكّلّ كلمة مع صَاحبتها مقام .

هذه الثلاثة مَن لا يُبصرُ حضورَ الاعتدادِ بالسّياق المقاليّ والمقَامي في البلاغة ، فهُو جديرٌ بأن يُطرد مِن أن يَحومَ حول حمِى هذا العلم .

فهذه الثلاثةُ مؤذِّنةٌ في النَّاس جميعًا أنَّ البلاغة إفهامًا وفهمًا رَبيبة سياقٍ مقاليّ ومَقاميّ .

لا يُمكن لناشئٍ في طلب هذا العلم أن يغفُلَ عن قولهم :« مطابقة » وقولهم : « مقتضى الحال » على اتّساع كلمة (الحال) المحيطة بِكلّ أركان الاتّصال اللّساني وسياقته :

حال المعنى وصانعِه وقصدِه من صِناعته وتصويرِه وإيصالِه .

وحال متلقِيه ومقصديةِ التلقّي .

وحالِ زمان صِناعته وصياغته وإيصاله وتلقيه ومكان ذلك .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلبِ هذا العلم أن يَغفُل عن الاستحقاق اللّزوميّ الذي لا ينفكُّ القائم بيْن حال المقام والمقال .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ البصرِ بهذا الحقِّ .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ البصرِ بمنهجِ الوفاءِ بِهِ .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ امتلاكِ أدواتِ التَّوفيةِ لِهذا الحَقِّ .

وأن يَغفُلَ عَن وجوبِ امتلاكِ مهارتِةِ إتقانِ هذه التوفية . . . .

كلّ هذا تجمعُه هذه (اللّام) في قولِهم (لكلّ) وفي هذا العمومِ اللّذي يستعصِي على الحدِّ والتّخصِيصِ في (كلّ) .

كلُّ هذا مؤذِّنٌ بأنّه ما مِن مقامٍ يكونُ في هذه الحياةِ إلاّ وله مقالٌ يُتآخَى معه ويتناغَى ، وَيطمئنُّ إليْهِ وبِه ، ويأنسُ إليْهِ وبِه .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلبِ هذا العلمِ أن يغفُلَ عن قولهم : « صَاحبتها » وما تحملُه من حقوقِ الصُّحبة من بذل مَا في الوُسعِ للصّاحب ، وما بينهما من تراحبٍ وترابح ، فَهذه الجمعية بيْن معاني الكلم جمعيةٌ محققةٌ للبيان حسن دلالتِه وتمامها وإحكامها (تبرجها) . وهي كلمةٌ تكادُ تستجمع كلَّ ما في « نظريّة النَّظم الجُرجانية » ، وما في « علم التناسب » من دقائق ولطائف ، فهي عَلَمٌ على إيجازِ القِصر الفياضِ بدقائقِ المعاني ولطائفِها .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلب هذا العلم أن يغفُلَ عن قولهم : « لكلّ » على نحو ما أشرتُ إليْه قبلُ من دلالة : (اللام) و(كلّ) .

ولا يُمكن لناشئٍ في طلب هذا العلم أن يغفُلَ عن قولهم : « (مقام) بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من (اتساع) لا يضيق أفقه : مقام مكانةٍ وظيفيّةٍ ، ومقام موضع في نسيجِ المعنى على امتداداته المتراحبة ، وفي نسيج صُورته .

كلّ هذا هادٍ إلى حضور الوعي بفريضة ملاحظةِ السّياقِ بوجهيه المتمازجين : المقالي والمقامي حُضُوراً يحمِي القائم فيه والقائم به من أن يتخذَ موقفًا فهميّا أو إفهامًا دون أن يكون لهذا الحضور سلطانٌ فاعلٌ سابغٌ .

العبارةُ عن هذه الثلاثة الأصول هي نموذج أمثل لإيجاز القصر من جهة ، ونموذج أمجدُ وأكملُ لما استنبطَه علماء البلاغة بمنهج البحثِ العلمي الاستقرائيّ .

هذه ثلاثة أصولُ تُغرسُ في عقل النَّاشئ في طلبِ العلم ببلاغةِ العربية ، وتجري في لسانِه بما تقرّره مِن فريضة مُراعاة السّياق المقاليّ والمقاميّ فهمًا وإفهامًا

ومَن تبصَّر في مقالة «السّكاكيّ» (ت : ٦٢٦هـ) وتلاميذ مدرسته في باب كـ«باب حذف المُسْنَد إليه» وهو يذكر «مقتضِيات الحذف» مَثَلاً يُدرك أنَّهم قد أَسَّسوا مقالهم هذا على عظيم الاعتداد بالسّياق المقاميّ والمقاليّ .

يقُول السكاكي : « أمَّا الحالةُ الّتي تقتضِي طيَّ ذكرِ المُسندِ إليه فهِي إذا كان السَّامعُ مُستحضراً له عارفًا مِنك القصدَ إليه عندَ ذِكرِ المُسند .

والتَّركُ راجعٌ ، إمَّا لضِيقِ المَقامِ .

وإمّا للاحترازِ عَن العبثِ بناءً على الظّاهر .

وإمَّا لتخييلِ أنَّ في تركِه تعويلاً على شهادةِ العقلِ وفي ذكرِه تعويلاً على شهادةِ اللّفظ من حيثُ الظاهرُ وكم بيْن الشّهادتين ؟

وإمَّا لإيهام أنَّ في تركَه تطهيراً للسان عنه أو تطهيراً له عن لسانك .

وإما للقصد على عدم التَّصريح ليكونَ لك سبيلٌ إلى الإنكار إنْ مسَّت إليه حاجة .

وإمَّا لأنَّ الخبرَ لا يصلحُ إلاّ له حقيقةً كقولك : « خالقٌ لما يشاءُ ، فاعلٌ لما يريدُ ، أو ادعاءً .

وإمَّا لأنَّ الاستعمالَ واردٌ على تركه ، أو ترك نظائرِه كقولهم : « نِعمَ الرّجلُ زيدٌ» على قول من يرى أصل الكلام نعمَ الرجل هو زيد .

وإمّا لأغراض سوى ما ذكر مناسبة في باب الاعتبارِ بحسبِ المقاماتِ لا يَهتدي على أمثالها إلا العقل السليم والطبع المستقيم وقلَّما ملك الحكم هناك شيء غيرهما فراجعهما . . . » [1]

فمن قرأ هذه المقالة وما شاكلها ولم يبصر ما فيها من عظيم الاعتناء بمقتضياتِ السياق فهو جديرٌ بأن لا يُخاطب[2]

ذلك ما كان ينشّؤ عليه صغار طلابِ العلم ببلاغةِ العرب في الأزهر . وهوحاضرٌ فيهم لا يغيبُ ولا يغيمُ تصورًا وفهمًا وإفهامًا فكيف بأشياخهم وأساتذتهم ؟!! [3]

* * *

(١) مفتاح العلوم . تأليف أبي يعقوب السكاكي . (ت : ٦٢٦هـ) طبعة مصطفى الحلبي . القاهرة . عام : ١٣٥٦هـ . ص ٨٤

(٢) رغبت في أن أنقل لك نصًّا من كتاب (مفتاح العلوم) الذي لقي من الضيم من بعضِ المنتسبين إلى العلم ، ولم أنقل لك شيئًا من كتابي عبد القاهر أو الموازنة أو الوساطة وما شاكل تلك الأسفار لترى قدرعناية البلاغيين بالسياق

(٣) حرصتُ على بسطة القول في هذا لما أراه من بعضِ الذين لم يُحسنوا النظر في أسفارالبلاغيين زاعمين أن علم البلاغة عند العرب علم معياريّ . وأنه علم لا يُعنى إلا بالمقولِ دون العناية بسياقاته ومقاصدِه . . إلى آخرما به يتصَايحون . .

obeikandl.com

من الذي مضى تدرك مقدار اليقين عند الشيّخ بأنّ الاعتناءَ بالّسّياقِ بوجيهه فريضةٌ في علم البلاغة العربيّ . . وتدرك أنّه لذلك قائمٌ في كلّ موضعٍ من سفره بل أسفاره جميعًا ، ومجالس علمه .

أَمَّا السّياقُ المقاميّ السّابغ كلّ ما عدا «المقول» من أركان التواصل ، والذي استجلبَ البيان من أفق النّبوةِ فإنَّ له عند الشيخ أثرًا بالغًا في ضبطِ حركةِ التَّلقّي.

وهذا السّياقُ المقاميّ في بيان النّبوّة إذا ما كانت له هذه الفضيلة في شأن التَّلقّي فإنّه ليس بذي سلطانٍ على امتدادِ حركةِ الهدايةِ للواقعِ المتجدّدِ المُتغيّر عبرَ الزّمان والمَكان المُمتدّ المُتراحبِ . إصلاحًا لمتهدّم ، وتأسيسًا لِمؤمَّلٍ .

ووجوب النّظر في السّياق المقامي أمرٌ متأصّل في قراءة بيان الوحي منذ تلقّى الصحابة بيانه .

روى أبو داود في كتابِه (الجهاد) من سُننه بسنده عَنْ أَسْلَمَ أَبِى عِمْرَانَ قَالَ : غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ ابْنِ الْوَلِيدِ وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ فَقَالَ النَّاسُ : مَهْ مَهْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يُلْقِى بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ . فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ : إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَأَظْهَرَ الإِسْلاَمَ قُلْنَا : هَلُمَّ نُقِيمُ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ **وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ** ﴾ (البقرة:١٩٥) فَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِى إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِى أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا وَنَدَعَ الْجِهَادَ .

قَالَ أَبُو عِمْرَانَ : فَلَمْ يَزَلْ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

فهذا مِن سيّدنا أبي أيوب الأنصاريّ رضي الله عنه إنّما هو تأسيسٌ لمنهاج الأخذِ بالسّياقِ المقاميّ ، وأنّ قراءةَ السِّياقِ المقاليّ معزولاً عنه يفضِي إلى ضلالةٍ مبيرة .

والسّياقُ المقاميُّ سياقٌ مُعينٌ على الرُّؤية الثاقبةِ السَّابغة ، وليس مُعيِّنًا حاصراً ، إنه سياقٌ حاملٌ على رؤية مركز المعنى ومرامِيه ، وغيرُ حاصرٍ فيه ومحاجز عمَّا هو منه بسبيل .

إنَّ ما كان له أثرٌ في صياغة الهدي النّبوي من الأحوال المحيطة بسياق القول لا يحاجزُ هذا القول عن أن يفعلَ في السّياقات المقامية المتلاحقة في أعصارٍ وأمصارٍ متعددةٍ متنوّعةٍ ؛ لأنّه بيانٌ صُنع لأمّةِ الدّعوةِ جمعاءَ إلى أن تقوم السّاعةُ .

والغفلةُ عن السِّياق المقاميِّ في فقهِ بيانِ النّبوّة قد يفضِي بالمرءِ إلى أن يقضِي بما لا يجوزُ القضاءُ به ، على نحوِ ما تراه فيما رواه البخاريُّ في كتاب (الصلح) و (المغازي) من صَحيحِه بسندِه في حديث طويل عن الْبَرَاءِ ـ رضى الله عنه ـ أن رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قال : «الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ»(البخاري : الصلح) .

أو ما رواه أبو داودَ في كتاب (السّنة) من سننه بسنده عَنْ عَامِرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «الْوَائِدَةُ وَالْمَوْءُودَةُ فِى النَّارِ» .

فمثل هذا لا يُفهم إلآ في ضوء السِّياق المقاميّ ، ومعرفة أسبابِ الورودِ[1].

---

(١) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام . تأليف : المؤلف : ابن دقيق العيد(ت : ٧٠٢هـ) نشر : مطبعة السنة المحمدية (د . ت) ٢١/٢. حديث رقم : ١٨٨ .

أو : رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام . تأليف : تاج الدين الفاكهاني (المتوفى : ٧٣٤هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١) عام ١٤٣١هـ. (١١٦/٥)

أو : مصابيح الجامع . تأليف : بدر الدين بن الدماميني (المتوفى : ٨٢٧هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١)١٤٣٠. ١٢٩/٦ .

فمن فهم هذا الحديث مستقِلاً عن سياقِه المقاميّ ضلّ فِي فهمه واستنباطه . والشَّيخُ حفيّ باستحضارِ دعائم مكوِّنات الشَّخصيّة المحمّديّة النّبويّة ، وأَثرها في بيانه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ

* * *

ترَى الشّيخَ يتلبث عندما يكون من أوضاعٍ حركيةٍ لسيّدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ حين يُبين عن عظم ما يُحدثك عنه على نحو ما تراه في تبصر الشيخِ ما رواه مسلمٌ في كتاب «الإيمان» بسنده عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ :

«أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ ـ ثَلاَثًا

الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ

وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ

وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ» .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ».

يتلبث الشيخُ عن عطاء هيئة سيّدنا رسولِ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ ، وهو يقول : «وَشَهَادَةُ الزُّورِ»

الانتقال من «الاتكاء» إلى «الجلوس» لم يكن أمرًا عفويًّا ، بل هُو وسيلةٌ من وسائل إيصال المعنى إلى القلب ، وتوطينِه فيه وتفعيله .

وكلُّ وسائل الإيصال والتفعيل اللغوية وغيرِ اللغوية يجبُ أن تكون سواءً في الاعتناء بُحسن فقهها . فليْست حركةُ اليدِ أو العينِ مَع حركةِ اللّسان بأقلَّ فعلاً دَلاليًّا من حركة اللّسان . فالمتكلمُ يوظِّفُ كلّ الوسائلِ التي تعينُه على حُسن إفهامِ مكنون صدرِه ، وفاءً بحقِّ المَعنَى (وليده) أوَّلاً ، ووفاءَ بِحقّ السّامع (ضَفيه) ثانيًا (إِنَّ الكلامَ مِن القِرَى).

من بَعد أن يُسجّل شيْخنا شيْئًا مِن واقع بعضِ «زُيوف الشُّيوخ» كما يَصفهم، ويصفُ السِّياق الاجتماعيّ والسّياسِيّ الّذي يجعلُ من أولئك الزّيوفِ مِن الشُّيوخِ فِي صدارةِ المَشهدِ .

يقُول : «قلتُ هذا لأكونَ فِي غِنًى عَنْ بيانِ لِماذا قالَ رسُولُ الله ﷺ «أنْ تجعلَ للهِ ندًّا ، وهُو خلقَك» ، و«عقوق الوالدينْ» ، وهو متّكئٌ ، ولم يكرّر هذا ، ثُمَّ جلسَ ، وقالَ : قولَ الزور أو وشَهادةَ الزُّور ، وكرّرَ هذَا حتّى قالَ الصّحابةُ ليْته سكتَ ، إشفاقًا عليْه صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليْهِ .

وقولُ الزُّورِ ليْسَ أقلّ بشَاعةً مِن الشّركِ ؛ لأنَّ الشّركَ هُو نِهايةُ الشّوطِ الذي ينتهِي عنْدَه المبطِلون . ولكنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا جلَسَ ، وكرّرَ لَمْ يَكنْ يُنبّه إلى أنّ هذَا الزُّور أبشَعَ عِندَ اللهِ مِن الشركِ ، ولا منْ عقُوقِ الوالدينْ ، وإنّما يُبيّنُ أنّه أسوأُ ما يواجِه الجماعةَ ، وأسْوأُ مَا يَهدمها ، وأبْشَعُ ما يردُّها إلَى الوراء ، ويقَضِي علَيْها بالتّخلفِ . . . .

وأهمُّ ما أريدُهُ هُو أنَّ الخطيئةِ الّتي تترتبُ عليْها مَفسدة أكثر فِي حياةِ الجماعةِ هِيَ الّتي نَرَى لِرسُولِ الله ﷺ إشارةً عندها تُشِيرُ إلى خطرها ، كأنْ يجلِسَ بَعدَ مَا كَانَ متّكئًا ، وكَأنْ يُكرّرَ الكلامَ ، وكأن يذكر قبلها أسوأ شناعتين ثُمّ يَخصُّها بإشارةٍ كما هنا ، فقدْ قرنَ قولَ الزّورِ بالإشركِ باللهِ ثُمَّ خصَّ بالجلوسِ بعدَ أنْ كانَ متّكئًا ثُمَّ خصَّ بالتّكرارِ .

وليْسَ عندِي فِيما أكتبُ أهمَّ مِن أنْ أبيّنَ كيفَ كان صَلاحُ الجماعةِ هُو الهدف الرشِيد مِن كلّ كلامه ﷺ ، وكيْفَ كانَ صَلاح دِنيانا هُو الهدف مِن كلِّ كلامِه ﷺ»[1]

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٥٤، ١٥٥ .

وممَّا يجعلُ قولَ الزُّور أهلاً لأن يُلفتَ إلى عظيم خطرِه بما كان من دلالةٍ حركيّة من سيّدنا رسُول الله ﷺ أنَّه مع عظيم خطرِه في الأمَّة ، هو أكثرُ حُضوراً في فعلها من الشّرك والعقوق ، فعُظم النّاسِ من لم يُصبْ من متنِ قول الزّور أصابه غبارُه ، فلا تكاد تجدُ إلا نزيراً ممّن لم يكن له من قَولِ الزور نصيبٌ ، بل إنّك لتراه مِن أبرز مَا يقع فيه من يُحسبُ أنّهم من أهلِ الفضل ، وأنّهم الأسوة .

وكانت الدَّلالة على عظيم خطره بحركة لا تخطِئُ العين إدراكها ، وبتكرارٍ لا تخطئُ الأذن تلقيه لأنّ الحركةَ مهما كانت الغفلة بالمرءِ هو يلحظها ، والتكرارُ يبطلُ أثر الغفلة عند الأولى والثانية ، فقلما كرّر الشيءُ فكانت الغفلة مستوليةً على إدراك المُكرّر كلّه .

وكانت عبارة «الصحابة» فقلنا ليته سكت هادية إلى إبلاغِ النبيّ ﷺ في تكرار هذه الكلمة . فلم تملأ أسماعهم فحسب بلْ ملأت أفئدتهم ، وشعروا بعظيم ما يملؤ فؤادَ النبيّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ من التّخوف من أن يكون هذا في أمته .

يلفتك الشيخ إلى أن من سنةِ رسُول الله ﷺ البيانية أنه أوفرُ اعتناء بما يقعُ من مفاسدَ في المجتمعِ تستوجب هلكته ، فلا يكونُ فيه من يحمل كلمة : «لا إله الله إلا الله» حملاً قويمًا ، ويدفعُ عنها دفعًا فتيًّا مستديما .

* * *

وكثيراً ما يلحُّ على أنّه كأنَّه يبصرُ سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ينظرُ إلَيْنا ونحن فِي القرنِ الخامسِ عشر من الهجرةِ يُخاطبنا بما يُصلحُ فسادنا ، وإفسادَنا ، ويَهدينا إلى ما يرفعُ مقامَنا فوق مَن حولنا . وكثيراً ما يُبصِر حالَ الصَّحابةِ وهم يخاطبون الرَّسولَ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ

وَصَحبِهِ وسَلّمَ مُستعلِمين أو متلقّين هديه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

يستحضرُ كلّ ذلك وهو يتلقّى بيانَ النّبوة ، وبيان الصّحابةِ ، وكانت عنايته بتبصُّر بيان الصَّحاية في نسيج الخبرِ تغوراً في أَحوالِهم في تلقّيهم ، ليرَى أثرَ الهدي النّبويِّ فيهم ، وليُرينا نحنُ صُورةً مِن صُورِ التلقّي الفطريّ لهذا الهَدي الغَيْثِ ، الهَدي النّور .

هذا الاستحضارُ له أثرٌ بالغٌ في القراءةِ والفهمِ ، يَستشعِرُه مَن يُحسِنُ الإصغاءَ لما يقولُ الشَّيخُ . مِن مشاهد هذا ومجلاه ما تراه مثلاً مِن قولِ الشَّيخِ في مبحث « لا تقتُله » وهو يتبصَّر ما هو مكنون في حديث المقدادِ بن الأسودِ رضي الله عنه ، وما في حديثِ أسامةَ بن زيدٍ رضي الله عنهما[1] .

وكان للشَّيخ في مناظرة الرّوايات وفي استحضار السِّياق المقاميّ ما لا يصلُحُ فيه التَّخليصُ أو الاقتباس ، لأنّ كلاًّ هُوَ إلى الغَبن أقربُ . ونعوذ بالله تعالى أن نَغبنَ أحداً ، فكيفَ بشيخِنا ؟!!

كلُّ بصرٍ في أثناءِ القراءةِ والتلقّي بحالِ سيّدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وحال صَحابتِه رَضِيَ اللهُ عَنهم في أثناء الإبانةِ والإفهام ، وفي بواعثِهما منه أومنهم .

وكلُّ بصرٍ بحالِ زمان الإبانة والتلقّي ومكانِهما ، وما يكتنفُ هذه الإبانة وتلقّيها . . .

كلُّ هذا إنّما هو من الاعتناءِ الحكيمِ والمُحكَم بالسّياق المقامي :

السّياق الفاتح لخزائن معانِي الهُدَى في السياق المقاليّ ، والسِّياق الحاملِ إلى ثبج البيانِ المثوّر لمكنونه .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٦١-١٨٤ .

وما هذا من الشّيخ ـ كما قلتُ قبلُ ـ إلا استثمارٌ لما تلقاه من أشياخِه في رياضِ الأزهر .

* * *

إنَّ السّياق المُمتدّ المُحيط بكلّ ما جادت به الحَضرة النّبويّة ، وما جاء في البيانُ الإلهي : القُرآن الكريم لهذه الأُمّة ، التَّشاغلُ عنه أوعدم الاعتناءِ البالغ بالوفاءِ بحقِّهِ ممّا يوقِعُ المَرءَ في ضلالِ الفهمِ عن رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

وأهلُ العلم بكتابِ الله تعالى وسنة رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يؤكّدون وجوبَ الالتزام بهذا السّياق على امتدادِه في بيان الوحي بأفقيه : قرآنًا وسنّة .

يقول ابنُ دقيق العيد : « السياق طريق إلى بيان المجملات ، وتعيين المحتملات وتنزيل الكلام على المقصود منه ، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه »

ويقول ابنُ القيم مفصّلا إجمالَ ابن دقيق العيد : « السّياق يرشِدُ إلى تبيين المُجمل وتعيينِ المحتملِ والقطعِ بعدم احتمال غيرِ المراد وتخصيصِ العام وتقييدِ المطلق وتنوّع الدَّلالة . وهذا من أعظم القرائن الدَّالة على مُراد المتكلم ، فمن أهمله غلط في نظرِه وغالطَ في مناظرتِه[1] »

---

(١) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام . تأليف : ابن دقيق العيد(ت : ٧٠٢هـ) نشر : مطبعة السنة المحمدية (د . ت) ٢١/٢. حديث رقم : ١٨٨ .
وبدائع الفوائد تأليف ابن قيم الجوزية . (ت : ٧٥١هـ) تحقيق على محمد العمران . إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد . نشر دار عالم الفوائد . مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي بجدة . ١٣١٤/٤ ==

وهذا ممَّا يستوجبُ مراجعةَ البيانِ في سياقِهِ المُمتدّ في مدونةِ السّنة كلِّها ، وفي البيان القرآنيّ .

والشَّيخُ لا تكادُ تجدُه في هذا الكتاب يغفُلُ عن الالتفاتِ إليه ، لينيرَ له ذلك السَّبيل بقدرِ ما يُقيمك في البيانِ النّبويّ متلقيًا أولا ـ وليقوم هذا البيانُ الجليلِ فيك فاعلاً ، لا يُفارقك ثانيًا .

وهُوَ لا يكتفِي بفريضة جمع الرّوايات القائمة في موضوع واحد ليفهَمَ بعضها في ضوءِ بعض ، بل يتجاوزُ هذا إلى ما هو أوسعُ وأرفعُ ، يتجاوزُ العنايةَ بامتداداتِ السّياق المقاليّ للحديثِ ليضبطَ حُسنَ الفهمِ عن سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ إلى أن يحقّقَ لهذا البيانِ النّبويّ حُسنَ فاعليتِه في الأمّة ، فانتقل مِن أهميةِ مُراعاة السِّياق عونًا على الاتساع فِي الفهم إلى أهمية ذلك في تحقيق حُسن الاستفادةِ من هذا البيان وتحقيق مقاصِده .

يقُول : « ومراجعَةُ كلامِ سيّدنا رسُول الله ﷺ ووضعُ ما تشابَه منه في الغرضِ في مواضع ، وما تعارضَ منه في موضِعٍ ، ثُمَّ ملاحظةِ المعاني المتضادة والمتقابلة ، ووضع بعضِها فِي مقابلةِ بعضٍ أعني تصنيف الأحاديثِ على وفق الأغراضِ تصنيفًا يُلاحظُ أحوالاً إنسانيّةً ، كأنْ أضعَ المكفرات للذّنوبِ بعد ذكر المُوبقاتِ منها ليجدَ المسلمُ الذي زلّت بِه القدمُ ، فوقعَ في كبيرةٍ فسْحةً فِي الحديثِ الثّاني الذي يفتحُ له بابًا من أبوابِ الرَّحمةِ حتّى

== وينظر رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام . تأليف : تاج الدين الفاكهاني (ت : ٧٣٤هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١) عام ١٤٣١هـ. (١١٦/٥)

أو : مصابيح الجامع . تأليف : بدر الدين بن الدماميني (ت : ٨٢٧ هـ) تحقيق : نور الدين طالب . نشر : دار النوادر ، سوريا . ط(١) ١٤٣٠ . ١٢٩/٦.

لا يظلَّ محبوسًا فِي سِرداب العذاب الذي اشتدّ عليْهِ فِيه حديثُ التَّهديدِ والوعيدِ .

أقولُ هذا اللونُ من التّصنيفِ أكثرُ فائدةً من قراءةِ أحاديث رسُول اللهِ ﷺ معزولاً بعضُها عن بعض ، لأنَّ هذا التّكامل يَكشِفُ لَنا أسرَارًا جلِيلةً فِي دينِ الله . . . »[1]

أرَى فِي ذَلِكَ بيانًا لشأن بيان سيّدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وما يتسمُ بِه من التلاحظِ والتَّساندِ والتَّعاضدِ ، وإنّ تباعدتْ المحالُّ والمنازل لا يعيقُ ذلك التباعدُ عَن الوفاءِ بحقِّ المُناصرةِ والمُساندة والمؤازرةِ ، فَيكون للأمة نورًا تهتدي به في علاقتها ببعضها .

فإذا ما كان ببيانه ﷺ يتساندُ ويَترابطُ على تباعد المنازل فذلك ما يجبُ أن يكونَ حالُ أبناءِ الأُمَّةِ ، لا يُحاجزُهم تباعدُ منازلِهم عَن تسَانُدِهم وتآزرهم وتناصرِهم ، وتراحمِهم وترابُطهم .

كأنّي بالشّيخ يكشفُ لنا عن بعضٍ من هذا الذي هو قائمٌ في بيانِ النّبوة مِن أنّ تحصيل الخيرِ على النحو الأمثل يستوجبُ تلاحظًا للمتشابهات ، وللمتقابلات ، فالأشياءُ يُبين بعضُها بعضًا .

وفوق هذا أراه يرسم لنا معالمَ منهج حُسن الفهم لما في بيان رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

وهو أعزّه الله تعالى يتغوَّر في ما بيْن يديْه من الهدي النبويّ كأنّه يعلمنا السّبح في هذا القاموسِ المحيط بِمعاني الهدى .

وتراه حينًا يستثيرُك بأنّ في البيان ما يتحرّك في صدره ، ولا يطيقُه لسانُه ، وحينا يحثك على ألا ترضَى بما بلغَه ، وأنَّ عليك أن تتجاوزَه ، لأنَّه يستشعرُ أنَّ من وراءِ ما قال فضاءً ، كأنّه يحثنا على أن نسعَى لنسبحَ فيه[2].

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٢١٣.

(٢) المرجع السابق : ١/٣٠، ٦٦، ١٥٠ .

وأنت تقرأُ ما كتبتْ يمينُه في هذا تدرك جليًّا أنّ الشَّيخ يحتاطُ في ضبطِ حركة قلبِه في التلقّي ، حتى لا يتوافد عليْه خاطرٌ في سياقٍ ما لا يتآخى معه .

هذه الحيطة مخرجها عند الشّيخِ التَّورع من أن يتقوَّل على رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلام

ومخرجها كما قلتُ قبلُ مقالة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « إِذَا حُدِّثْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثاً فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْدَى وَالَّذِى هُوَ أهناه وَالَّذِى هُوَ أَتْقَى . »

وتحقيقُ هذا الظّن الأهدى والأهنأ والأتقى يتجلّي في إتقانِ منهج التلقّي ، وحياطته من كلّ ما يُمكن أن يعطف حركته عن الصراط القويم ، ومن أن يقيم المرْء مقام الضاربِ بيان النّبوة بعضِه ببعضٍ على نحو ما تراه في صنيع ثلة ممن ليست لهم قدم في طلب العلمِ بكتابِ الله سُبْحانَه وتَعالَى وبسنةِ رسوله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ .

مراجعة السّياق المقاليّ من أقوى الضَّوابط لحركة الفهم والتلقّي عن رسُول الله ﷺ .

وجمهرة العلماء الَّذين يُعنَون بتعليم حُسن النَّظرِ في البيان يؤكِّدون أهميَّة هذا الضَّابطِ على نحو لا يفتقر طالبُ علمٍ إلى أن ننقل له نصوصًا من مقالاتهم في هذا الشَّأن .

والكتابُ مفعَمٌ بهذه المراجعة لأنَّها الأداةُ الفاعِلة في استنباط معاني الهُدى مِن جهةٍ وفي إيصالها إلى قلبِ القارئ ، فمنهجيّة الاستنباط وأدواته وحركته كلُّ ذلِك له أثرٌ بالغ في الإيصال والإفهام كمثل ماله أثر في الحَمل من المكنون في البيان النّبويّ .

ولا يغني اقتباسٌ من نصٍّ للشَّيخ عن أقرانه وأترابِه وما نذكرُ إلا إغراءً بالمتابعة .

* * *

ومن الاعتناء باستحضار السّياق في القراءةِ والتلقّي استحضارِ النظائر في المعنى أو في منهج الإبانة .

هو يرى في التصاقب التركيبيّ مفاتحَ أبوابِ خزائن لطيفِ المعاني ، وكأنّ هذا التصاقبَ ينادي علينا أَلا عوجُوا إلى ما ناظره وشاكهَه ، فإن لكم في استحضارِه مِن العَون على إدراك لطيف المعنى ما قد لا يتحقّقُ لكم بغيرِه .

في تفهمه بيان النُّبوّة الذي رواه أبو ذرّ عن النبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ أنه قال :

« ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارٍ .

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ

قَالَ : « الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» .

يَستهلُّ الشَّيْخ بيانه بأن طريقة بناءِ هذا الحديثِ هي طريقة بناءِ حديث : « أربع من كنّ فيه» مع اختلافٍ في المعنى .

ولهذه الطريقة نظائر كثيرةٌ في كلامه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، ويهدينا إلى أن نجمعَ الأحاديث التي بُنِيت على حذوٍ هي أخوات لأبٍ وأمٍ .

ويهدِي الشيخُ إلى أن ما جاء على حذو واحد في بنائه تجد فيه ما يقاربها جدًّا وما يقاربها فقط وما يأخذ في البعد عنها شيئًا فشيئًا[1]

هذا التشبيهُ من الشيخِ (هي أخواتٌ لأب وأم) يشير إلى أنّك لابدَّ واجدٌ فيها ما يجمعها ، وما يميّز بعضًا عن بعضٍ تمييزًا لا يؤدي إلي المفارقة ، فخروج الأخوة لأب وأم من صلبٍ واحدٍ ورحمٍ واحدٍ يقيمُ في كلٍّ ما يجمعُه إلى مَن شاركه في المَخرج .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦/١ .

وكَأَنَّ شيخنا يقُول لنا إنَّ رسُولَ الله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ يلفتُنا بهذا التناظرِ في بناءِ المعنى إلَى أن نُعمل فراستَنا البيانيّة ، فنُبْصِرُ ما بيْن المتناظراتِ مِن وجوهِ التَّلاقِي ووجوه التّمايز ، ومدَى أَثر التّمايز في وجوهِ التلاقِي :

أهو تمَايزٌ يَمدُّ التّلاقِي بقوةٍ وتمكّنٍ وحيويّةِ عطاءٍ؟

وهو يوجبُ دراسة هذا كلّه ، وفاءً لِحق بلاغتِه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ ، ويهدي إلى أنَّ النَّظر النَّافذ السَّابغ انتهى إلى أنَّه ﷺ لم يفعل ذلك استعذابًا لطريقٍ ، فما هو بالمتعمل والمتكلف ، إنّما النَّازل على ما يقضِي به المعنى .. ويشير إلى أنّه سعَى لإبصارِ الباعثِ والمقتضِي ، فكاد أن لا يذكرَ مخافة أَلاَّ يكون هو . ثم مضَى ذاكرَه رغبةً في أن يطَّلع عليه ذو بصيرة ، فيُقوِّي أو . . . ، فلا يبقَى في صدرِه غير مقضي له أو . . .

يُرينا الشَّيخُ « أنَّ كلّ معنًى من المعاني له نهجٌ أعلى فِي الإبانةِ عنه يُشبه هذا النّهجُ أن يكونَ متلائمًا مع فطرة هذا المعنى ، وأن هذا النهج يَتراءَى لأهلِ البيانِ مِن بعيدٍ ، وكلٌّ منهم يسعَى لِيقاربه ، وكلٌّ منهم يصلُ إلى ما يصلُ إليْهِ مِن هذه المقاربةِ بِمقدارِ ما تُعينه موهبته البيانية .

وبيانُه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ أسبقُ بيان النّاسِ ، وأَقربهم إلى هذه الفطرةِ الّتِي هي النَّهجُ الأعلَى فِي التَّعبِيرِ عَن المَعنى أَيّ معنًى ؛ لأنه عليه السّلام أفصح مَن كانوا ، وأَفصح من سيكونُ إلى يومِ القيامة . . . . » [1]

إذا ما كانت معانيه ﷺ وحيًا من ربّه سُبْحانَه وتَعالَى وليست من صَنعة عقلِه الزّكيّ الطَّهور ، وكان هو المُصورَ لذلك المعنى وفق رؤيته ما يحمله هذا المعنى من الخَصائصِ ، وما يتلاقَى بِه مَع معانٍ أُخر أوحيتْ إليه ، فيراها ببصيرة النّبوّة تنتسبُ إلى غايةٍ ، وإن تمايزت موضوعاتُها ومجالاتها ، فهدته

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٦٦/١، ٦٧ .

بصيرته النّبويةِ وفطرتُه المُحمَّديَّة إلى أنّ المسلك الأحمدَ أن يلفتَ إلى توحُّد الغايات أو تقاربها من خلالِ تسَاقب أبنية الصّور الدَّالة على المعاني المتقاربة الغايات ؛ ليكون منهاجُ بناءِ الدّالِ ومنهاجُ الدَّلالة آيةً على تلاقِي الغاياتِ والمقاصدِ .

وهذا يحملُ المتلقّى هذا البيان إلى أن يستجمِعَ صُورَ ما تقاربت غاياته في بابٍ من خلالِ تصاقب أبنية صُورِ المعاني أو تقاربِها لِتَردَ الغاياتُ والمقاصدُ على القلب المعافى ، وفي كلّ وردودٍ شيءٌ جديدٌ يُضيف إلى الورود السّابقه ، فيكون ذلك أمكنَ له في القلبِ ، وأقوى فاعلية فيه .

وفي هذا استجابة لما أمره الله سُبْحانَه وتَعالَى به في قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) أي قولا بليغًا في أنفسهم : يبلغ سويداءها[١].

---

(١) إنّي لعلى ذُكر من أنَّ قوله تعالى : ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) سباقُه قول الله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ** ﴾ (النساء:٦٣) بيْد أنَّ هذه الفاصلة : ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) صالحةٌ لأن تكونَ كالمثل ، إذا فصلت من سباقها ولحاقها صلحت أن تعطى معنى أوفر سبوغًا ، وأبسط قطرًا .

وهذا شأن ما يكون بمثابَة (الأمثال) و(الحكم) ذات السياقات ، ولها قدرة على عطاء آخرخارج سياقها ، وما يكتنفها من سباق ولحاق . وغيرُ قليلٍ من آياتِ القرآن ومن جمل البيان النبوي لها في سياقها معنى وعطاء ، ولكنها إذا أقيمت في سياق أرحب لم تكن عقيمًا بل أعطت ما يتواءم مع هذا السياق الأرحب .

والعرب كانتْ تستعلي بيت الشّعرالذي إذا استدعي خارج سياقه كان له عطاء ، ولا يكون سياقُه محاجزَه عن أن يفعل في النّفسِ خارجه ، بل استعلت العرب أن يكون شطر البيت ذا عطاء إن أخذ في مساق بياني مفصُولا عن لفقه في الأبيات .

وهم بذلك لا يَستعلون أن تكون القصيدة أشطرًا متفاصلة بلْ يذهبون إلَى أن يكون للبيت أو الشّطر عطاءٌ عليّ في سياقه مع أقرانِه ، وله أيضا عطاء وإن كان أدنى ، ولكنه أوسع مجالاً حين يكونُ مأخوذا عن قبيلته . وكأنّي بهم ينظرون إلى ==

وكأنّ الشيخ يلفتنا إلى أمريْن كليين في علمِ البلاغةِ العربيّ :

«الأمرِ الأولّ : أنّ المعنَى هوالّذي يختار صُورته ، وليس المتكلّم حرًّا في أن يوردَ المعنَى في أيّ صُورة أراد .

بلاغةُ المتكلم في أن يكونَ المقتدرَ المطيعَ البارَّ بالمعنى ، إذا استوجبَ المعنى صُورة يتجلّى فيها لا يكونُ من المتكلم عجزٌ ، ولا يكون منه توقف فضلاً عَن تردّد أوتمنّع ، بل هو يؤدِّن بشعار الأبرار : سمعنا وأطعنا .

فإذا ما كانتْ البلاغةُ مطابقة الكلامِ الفصيح مقتضَى الحالِ ، فإنّ من أهمّ الأحوالِ حالَ «المعنى» . فريضة أن يخضعَ المتكلمُ لما يقتضِيه ذلك الحال .

وهذا ممَّا لا يكثرُ التَّنبِيهُ عليْهِ عند بيان الأحوال ومقتضِياتها . وهوالجديرُ بأن يُعْتنى بالتنبيه عليْه .

فإذا ما تقاربَت المعاني في ذاتها ومخرجِها ومقصدِها كان ذلك داعيًا فتيًّا إلى تقاربِ صُورها .

في تشاكل السَّمتِ المَشهود آيةٌ على تآخي المعانى المكنونة .

وإذا ما كان علماءُ اللغة ، قد تجلّت عنايتُهم بتصاقبِ الألفاظ لتصاقب المعاني في باب الكلم ، فجديرٌ بالبلاغيين الاعتناء ببيان تصَاقبِ النّظم لتصاقب المعاني التركيبيّة .

ولمَّا كان إدراكُ تصاقبِ الصّورِ أيسرَ وأقربَ من إدراكِ تَصَاقبِ المعاني ، كان تقاربُ نظم الصّور هاديًا إلى ما بيْن المعاني من رحم موصول ، ممّا يحقق للبيان تماسكه ، ويحقق للمتلقّي قدرتَه على أن يبصر طريقَه إلى المعنى .

==الشّطر أو البيت في القصيدةِ نظرهم إلى المَرء منهم في القبيلة ، وهو في سياق أسرته وقبيلته : (قصيدته) ذو عطاء ، وإذا ما أخذ خارجه لم يكن عاطلاً عقيما . فقوله تعالى : ﴿ **وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا** ﴾ (النساء:٦٣) صالح أخذه من سياقِه وسباقه وإقامته في سياقات أُخر . .

والأمرُ الآخر: أنّ تصاقبَ الصُّور عاملٌ من عوامِل تماسك البيان وتلاحُظِه، ممَّا يَعصِمه مِن التّشارُد من جهة، ويعصِمُ المتلقِّي مِن أنْ يَجري في القراءةِ التَّجزئِيَّة للبيانِ؛ لأنّه إذَا ما تَوافدَتْ عليْه صورٌ متصاقِبةٌ حملَه ذلك على أن يُبصر ما بيْنَ محمولاتِها من رحم، فيسعَى إلى الاسْتِحصاءِ، والاسْتقراءِ.

وأنّ تَصَاقبَ الصّور هادٍ إلى الإعرابِ عن أهمية المعنى الذي تسَاقبت صُورُه. ممَّا يجعلُ المتلقّي يوفّيه حقه في تلقّيه نظير توفية المتكلم حقه في الإبانةِ والإفهام.

وأنّ تَصَاقبَ الصُّور هادٍ إلى أن يلتفت المتلقّي إلى ما بيْن محمولات هذه الصُّور من فروقٍ، وما اقتضاها، وما يسعى إليْه بها. فيدرك حركة المعنى إلى القلبِ في كلّ صورة، لأن اللجوء إلى تسَاقبِ الصُّور دون تكرارها هادٍ إلى الالتفاتِ إلى ما اجتمعا فيه، وما امتاز كلّ عن الآخر.

فمن فرائضِ العقلِ البلاغي بيان أمرِ المعاني كيفَ تختلف وتتفق، ومنْ أين تجتمع وتفترق كما يقُول عبد القاهر. وأن تساقبَ الصور هادٍ إلى معالم السُّنة البيانية للمتكلمِ، فكما أنَّ لكل امرئ سمته الظاهر في هيئة جسدِه، له أيضًا سمته في بيانه عن معانيه، فهو لا يتميزعن غيرِه في صورته الحسية فَحسْبُ بل هو أشدّ تمايزًا في صُورتِه الجوانية على ما يتجلّى فيه من البيان اللساني والسلوكي.

ومن الجليّ الذي لا يخفَى على من له ببيان النبوة صُحبة أن لبيان رسولِ الله صَلّى اللهُ عليه وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّم خصائصَ وسننًا بعضُها اقتضتهُ المعاني التي يبثّها في النّاسِ، وبعضها اقتضته خصوصيته الذاتية (البشرية). فمعالمُ المُحمدية (البشرية) في بيانه لا تخفَي في جانب معالم نبوّته، ويملك من يَتفرسُ بيانَه أن يُشيرَ إلى ما ينتمِي إلى بُعْدِ النّبوَّةِ فيه، وما ينتمِي إلى البُعد المُحمّديِّ فيه

* * *

المهمّ أن الشَّيْخَ يحملُنا إلى أن نستحضرَ ما تصاقبت أبنيتُه حال التَّفهُّم والتَّدبر ، لِما في ذلك من العونِ على حسن التَّدسُّسِ ، وحُسن العرفان بعلاقاتِ المعاني ، ومآلاتها ومقاصدها . وهو بابٌ من الفهم جدّ دقيقٍ وعميقٍ .

وهو أكرمه الله تعالى بسترِه لا يكتفِي بهذا بل تراه يمتدُّ نظرُه إلى ما تصاقب من بيان النُّبوّة مع البيان القرآني ؛ لأنّه يرَى السّياقين سياقًا واحدًا مخرجًا ومقصِدًا [1].

وهو يتبصر قول رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

يلفتنا إلى أنّ هذه الجملَ الثلاث منقولةٌ من القرآن ، وأنَّها جاءت في سياقِ عقابِ الَّذين يكتمُون ما أنزلَ الله تعالى من الكتابِ ، ويشترون به ثمنا قليلا ، وسِيقتْ في بيانِ عِقابِ هؤلاءِ الّذينَ لايزالون بيننا بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤)

وفي آل عمران مثلُ ذلك في شأنِ الذين يشترونَ بِعهدِ اللهِ وأيمانهم ثَمنًا قليلا :

---

(١) الذهاب إلى أنّ بيان الوحي كلّه قرآنًا وسنة سياقٌ واحد مهيع الأعيان من أئمة أهل العلم بكتابِ الله تعالى وسنّة رسُوله صَلَوات اللهِ وسلامُه عَلَيْه وعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، على نَحو ما تراه في كتاب « الموافقات في أصولِ الشريعة » لأبي إسحاق الشاطبيّ .
وهذا المذهبُ يتسع لصناعة بحوثٍ في بلاغة الوحي لا تتناهَى قضاياها ولا تخلق دقائقها ولطائفها . والانصراف إلى هذه الصناعةِ احتسابًا إنّما هو من بابِ النصيحة لكتابِ الله سُبْحانَه وتَعالَى ولسنةِ رسوله ﷺ ثم هو من باب النصيحة لِخاصة الأمّة وعامةِ الإنسانيّة . والأمّة أحوجُ ما تكونُ إلى هذه الصناعة . .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٧٧)

هذا القرن بيْن السِّياقين كَأنَّ الشَّيْخ يلفتُنا إلى أن نتصوَّرَ فداحة الـذَّنب الـذي جاء البيان عـن عقابـه في الحـديثِ (الإسـبال والمـن وإنفـاق السـلعة بـالحلف الكاذب) بمناظرته بالذَّنب الـذي جـاء العقـابُ نفسـه عنـه في البيـان القرآنـي : (كتمان ما أنزل الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، وأن يُشْتَرى بِهِ بعهد الله تعـالى وبالأيمـانِ ثمنًا قليلاً)

وظاهرُ النَّظرِ يذهب بك إلى أن الآثام التي جاءت في البيان القرآنيِّ ليس في درجتها الآثام التي جاءت فِي بيان النُّبوّة ، ولا سِيّما الإثمُ الأوَّلُ (الإسبال) فدلَّنا التلاقي في العقوبة على أنّ ثَم تلاقيًـا بـين الآثـام المـذكورةِ في القـرآن والآثـام المذكورة في البيان النّبويّ .

والشّيْخُ يلفتنا إلى أثر استصحابِ بيان القُرآن عند التَّبصُّـر في بيـان النُّبـوّة ، يلفتـنا إلـى أنَّ هـذه الجملَ الَّتي صورَّت عقوبة الآثام المذكورة في بيـان النُّبـوّة لم تفرغ مِن شُحنةِ الغضبِ الّتي أفرغها فيها سِياقُ سُورة البقرة ، وسِياق سُـورةِ آل عمران « لأنَّ المفرداتِ لا تَعرُو أبدًا مِن أحـوالِ السّـياقِ الّـذي جَـرتْ فيـه ، وكذلك الجملُ »[1]

كانّي بالشَّيخ يهدِي إلى أمرٍ مهمٍّ جدًّا في شأنِ أثرِ السّياق في دَلالة الكلمةِ ، أوالجملة ، فكما أنَّ الوضعَ الأوّل للكلمةِ له أثرٌ بالغٌ في المعنَى الَّتي تسـتعملُ فيه بعدُ ، فلا تتخلَّى تخليًا تامًّا عنْ كلِّ ما وُضـعت لـه ، علـى مـا هـدَى إليْـه سِيبويه في « الكتاب » مِن أنَّ حروفَ المعاني إذا استعمِلتْ في غيرِ ما وضـعتْ

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٩/١، ٧٠ .

له ، فإنَّ شيئًا من معناها الموضوعة له يصحبُها في السّياق الـذي تحـلّ فيـه ، فـ(الباء) يبقى فيه معنى «الإلصاق» حيـثُ حـلَّ ، فـإذا اسـتعملَ في الظرفيـة ، فظرفيتُه ليست هي ظرفية (في) : ظرفية (الباء) بطعم ونكهة (الإلصاق) وظرفية (فِي) خلاءٌ من ذلك .

كأنّـي بشيخَنا يهـدينا إلى أنّ الكلمـة ، والجملـةَ إذا اسـتعملت في سـياقات متنوعة ، فإنّها تحملُ مِن كلّ سياقٍ بعضَ ما كان لهـا منـه ، فعلـى قـدر تنـوّع السّياقات الّتي تستعملُ فيه وتعدّدها يكون اجتماعُ المعاني فيها ، وكأنَّـها لمـا حلَّتْ في سياق حملتْ من عطائه ، فلمَّا ارتحلتْ عنه إلى قرينِـه حملـتْ شـيئًا من العطاء . منيحةً لا تردُ : والسِّياق يُنشدُ :

وَنُكْـــرِمُ جَارَنـــا مَـــا كـــانَ فِينـــا وَنُتْبِعُـــهُ الْكَرَامَـــةَ حَيْـــثُ مَـــالا

وهذا يَهْدِي إلى أنَّ كثرةِ استعمال الْكَلِمِ وَالجُمَلِ في سياقاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ يَمنحُها جِدَّةً وحَيويَّة وفُحولَة وامتلاءً . وهذا يضعُ على كاهل المُتلقّي المُتفهّم حِملاً جدَّ ثقيل : عليْه أن يَسْتَحْضِرَ السّياقَاتِ الّتِي حلَّت فيها الكلمةُ ، والجملةُ ، لِيعلم محمولَها من كلِّ سياقٍ حتى يَتفهم معناها في السّياقِ الّذي هو قائم لفهم البيان الجاري في لاحِبِهِ[1] .

وهذا ممَّا لا يطاق بعضُ الوفاءِ به ، فكيف بتمامِه ، فكيف بكماله ؟!!!!

---

(١) إذا ما جعلتَ المرء في وجودِه المجتمعي بمثابة الكلمة في وجودها البيانيّ السّياقي ، وكانت الكلمة تحمل من سياقات استعمالها ما تضيفه إلى موروثها الوضعيّ من المعاني فإنّ المرء كمثل ذلك فِي عيشه في سياقات حضارية يعيش فيها ، فيحمل منها أشياء يَضيفها إلى موروثِه الذي اكتسبه من منبته ومرباه الاجتماعي ، وهنا تأتي خطورة المقام في سياقات اجتماعية يغلبُ عليها الطابع المعاند لما فُطر عليه السّياق الاجتماعي المسلم .

وهذا يجعلُني قارئا ومتفهمًا في مقامِ الشّعور المُستفحل بالعجزِ الفتيّ المُتغوّل ، وحينئذ يجتثّ هذا الشّعور منا داءَ العُجبِ وتَوَهم التميز .

وهذا عطاء لو لمْ يكن لنا غيره لكفى ، وأغنَى . كلٌّ متلقٍّ متفهم للبيان عاليًا بديعًا أو عليًّا معجزًا هو مقصّر في حقّ هذَا البَيانِ ، غيرَموفٍ ما عليْه لَهُ ، ممّا يجعلُ هذا البيان ما يزالُ مُسْتَشْرِفًا إلى مَقدَمِ مَن يستكمل بعضَ حقّه .

إنَّ التَّلقي والقراءة والتَّفهم عملٌ جِدُّ جليلٍ وثقيل

* * *

وممّا يَحسُنُ أن ألتفتَ إليه في قراءة الشَّيْخ أراه جليلاً في هذا المقام : هو عنايتُه أعزه الله ببيان أثر بيان النُّبوة في سامعِيه ، ولا سيّما الصَحابة رضي الله عنهم أجمعين فهو ممّا نحن بسبيله : « سياق البيان المقاليّ والمقامي بشقيه :

- شِقِّ الإبانةِ والإفهامِ .
- وشِقِّ التلقّي والتَّفهم .

هو لا يكتفي بأن يتبصَّر الشقّ الأوّل : بل يتبصّرُ أثر هذا البيانِ النّبويّ في مَن سَمِعَهِ أولاً من رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه أفضلُ الصّلاةِ والسّلام وليبيّن لنا كيف أنّ صحابته رَضِيَ اللهُ عَنهم كانوا في مقام الاستماع آذانًا واعية ، وقلوبا منفعلةً تتعطل منهم كلّ وسائل الإدرك إلا السّمع بالأذن والقلب ممّا يحملهم ذلك إلى المبادرة بالسّؤال عَن شيْءٍ هم على يقينٍ أنّ سيّدنا رسُول اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ لو صبروا لقال الَّذي عنه سألوا ، ولكنّ أنَّى لهم أن يصبروا تحت سطوة فتوةِ أثر بيانه ﷺ فيهم؟!! فإذا هم خارجون عمَّا يقتضِيه ظاهرُ المقام من الصّمت حتى يفرغ ﷺ ، فإذا هم سائلون . من هم يارسول اللهِ ؟ ونحو ذلك ممَّا أنت تراه شائعًا في مُدونة السّنَّة النّبويّةِ ، والرَّسول ﷺ عليمٌ بأنَّهم لم يفعلوا من سوء أدب في الإصغاءِ ـ حاشاهم ـ أنّي لهم وهم مريدوه وصنيع هديه وأدبه ﷺ .

علم أنّهم ما بادروا بالسّؤال عمَّا هو لا محالة قائلُه ، وإن لم يسألوا علم أنّ ذلك أطرَهم عليه أطرًا أثرُ بيانِه فيهم . فكانوا كالمُكرَهين على ذلك التّسارعِ إلى السّؤالِ عمّا هوآتٍ لا محالةَ .

لك أن تنظرَ إلى التفاتة الشّيخِ إلى أثرِ نسق بيان النّبوّة في سيدنا أبي ذرّ رَضِيَ اللهُ عَنه ، فلم ينتظر من قوة أثره فيه .

نظر الشَّيْخُ إلى أثر النّسق في السَّامع من بعدِ أن تبصر هو هذا النَّسق وما حمَل من معاني الهدى ، فأشار إلى قيام مقالةٍ لسيّدنا أبي ذرٍّ في ثبج بيان النّبوة ، ليبيّن لك صنيع بيانِ النّبوة في أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنه من جهةٍ ، وليبيّن لك موقع مقالته من بيانِ رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه أفضلُ الصّلاةِ والسّلام :

عَنْ أَبِى ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنه عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ :

« ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ : فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارٍ .

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : « خَابُوا وَخَسِرُوا . مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟»

قَالَ : « الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» .

بعد أن يكشفَ لك شيئًا من معنى قول النّبي ﷺ : « لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ» يقول :

« أدرك سيّدنا أبو ذرٍّ كلّ هذا ، فقال بتلقائيّته المعهودة : « خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» ولا حظْ أنّ سيّدنا رسول اللهِ كان سيقُول من هم؟ لأنّه يستحيلُ أن يقُول : ثلاثة لا يكلمهم الله إلى آخره ثُمّ يسكتُ ، ولكن الذي وعاه أبوذرّ ممّا قلناه وأعمقُ ممّا قلناه أثاره ، فاعترضَ بجملة اعتراضيةٍ بيْن الخبرِ والمبتدأ .

وهذا اعتراضٌ آخرُ غير الاعتراضِ المتعارفِ ؛ لأنّه اعتراضٌ دخل في الكلامِ مِن متكلّمٍ آخر ، وهو لا يكونُ إلاّ إذا كان في الكلامِ الذي قبلَ هذا الاعتراضِ ما يُثيرُ السّامع إثارة لا يصبرُ على السّكوت معها ، فيدخلُ بكلامٍ يشقّ بِه وحدة الكلامِ الأوّل ، ويغرسُ ما اعترضَ به بيْن قسمي كلامٍ لا يفصلُ بينهما كما هو شأنُ الاعتراضِ[1].

ولِذلك كانت جملُ الاعتراضِ المعروفِ من أقوى المعانِي ، ومن أرقَاها ، وتراها بيْن الكلامِ الذي وقعتْ اعتراضًا فيه كأنّه لؤلوة متميزة بيْن لآلئ ، كما تراها أحيانًا كأنّها ومضةُ إضاءة [2].

---

(١) يشيرُ الشَّيْخ إلى أن ما يُعترضُ به بين قسمي الكلام ، سواء كان من متكلمٍ واحدٍ أو من مُتكلميْن،لا يُحدث في البيان وَهَنًا في التأثير مثلما لا يحدثُ في نظمه شرخًا . إن هوإلا خيطٌ من نوع آخر من خيوط النسيجِ يحدث تماسكًا في التلقّي ذلك أن قيام ما يُعترضُ به هو خارج عن أفق المتوقع ، فالمتوقع أن يستكمل القول ، فإذا السّامع للبيان يجدُ غير ما يتوقع،فيزداد بصره أولاً بما سبق؛لأنه هوالذي استدعى ما اعترض به ، فيتبين له فيما سبق الاعتراض ما لم يكن قد تبيّن له ، فكان هذا الاعتراض (الخيط المتفرد في نوعه) من رقعة النسيج عاملا من عوامل منح ما سبقه فاعلية في النفسِ المتلقية ، وهذا من خدمةِ المعنى ، والبرّ به .
وهذا لا يصلح إلا حين يكون البيان فتيًّا لا يؤثر في تماسكه ، وتلقيه ما يقوم فيه اعتراضًا ، ولا يقدم عليْه المعترِض إلا إذا كان عليمًا بأنّ ما سيعترضُ فيه مقتدر على أن يمضي إلى غايته في فتوةٍ أشد ممّا كانت له .
ولذا كان الاعتراض صورة من صور شجاعةِ العربية .
وحقيقة الشجاعة تتمثلُ في الإقدام على ما يتوقع منه الخطر ثقة في القدرة على إبطال ذلك الخطر . فالمعترض لا يقيم اعتراضه إلا من علمِه بما لهذا الكلام الذي يعترضُ فيه من قوة التماسك والتلاحم ، والتلاحظ والتنادي وفتوة في التأثير . .
(٢) استشعرُ من مقالة الشَّيْخ هذه حفزًا لنا طلابَ العلم إلى أن نقوم إلى هذا الأسلوب بحثًا فيه عن عوامل قوته وتأثيره ، وكيف أنَّ موقعه بين متماسكين بحجز بعضهما لا يحدث نبوة بينهما ، ولا يحدث له هو شيْءٌ من قبح التطفّل ، ذلك أنّه في الحقيقة استجابة لحاجة في ما وقع فيه ، فأوله استدعاه ، فاستجاب ، فلم يكن متطفلاً ، ==

وقـد أفلح أبو الفتحِ في بيان هذا ليس بحديثٍ نظريّ ؛ لأنـّه لم يـتكلّمْ فِـي هذا ، وإنّما شواهد أضافها للاعتراض أصاب في اختيارها ؛ لأنها كانـت جمـلاً مضيئة جدًّا .

وسيّدنا أبو ذرّ باعتراضِه هذا علّمنا شيْئًا ، وهُوأنّ الجملةَ السّابقة للاعتراض لابُدّ أن تكون مستفزّة أوحالةً مستفزّة ، كحالة رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وهو يقرأ هذا الخبر ثلاث مرات »[1]

* * *

الضَّابِطُ الرَّابع :

عمق البصيرة بمنهج العربية في الدّلالة على المعاني : في أوَّل سورة (الفاتحة) قد عرفنا الله سُبْحانَه وَتَعالَى بنفسه لعلمه أنّا عباده عاجزون عن أَنْ نعرف صفته بأنفسنا غير معلَّمين بالوحي ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١-٣)

فكان ذلك جماع ما يجبُ على العبد أن يسْتحضره في قلبِه من شأنِ ربّهِ

==بل كان المُستجدَى مقدمُه ، ليحقق لما وقع فيه معترضًا ما يحتاج إليه ، فكان في هذا الاعتراض المستدعَى من الإفضال على ما اعترض فيه ما لا يستغنى عنه .

فإذا لم يكن في أسلوب الاعتراض هذه الخصائص ، فهو المنبوذ المدحـور ، وهـذا ما لا يمكن أن تجده في البيان العَلِيّ : بيان الوحي قرآنـا وسـنة ، ولا في البيـان العـالي : بيان الإبداع شعرًا ونثرًا

الشَّيْخُ بإعرابه هنا عن القيمة الوظيفية للاعتراض يلفتنا إلى وجـوب البحـث عـن هـذه القيم التي ربّما غرّ بعضـنا تسـميته اعتراضًـا بضـعف فوائـده وقلـة عوائـده . وهـو في حقيقته المستنجَد به المتفضِّلُ بالإحسان .

وهذا من الشَّيْخ انتصارٌ لأسلوبِ الاعتراضِ ودفعٌ لمظلمة قد تلحقُه من بعضِ الناشئة ، وإرشادٌ لنا ـ طلاب العلم ـ أن نعرف أقدار الأشياء بأفعالها وآثارهـا . فأنت بحسبك لا بنسبك ، وأنت بجدّك لا بِجَدك .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٧٥، ٧٦

سُبْحانَه وَتَعالَى فكلُّ حديثِ القرآن عن منزّله تعالى راجعٌ إلى ما استهلّ بِه سورة (أمّ القرآن)

وفي أوّل سورة (البقرة) عرفنا بكتابه الذي أنزله على خاتم رسله صلّى الله عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:١،٢)

وكل حديثِ الله تعالى عن القرآن فيه راجعٌ إلى هذه الثلاث الّتي اسْتهلّ بِه سُورة (البقرة) : (ذلك الكتابُ) ، (لارَيْبَ فِيهِ) ، (هُدًى للمتقين) .

فإذَا مَا كان قوله تعالى **﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾** هادٍ إلى كمالِه وعلوه في نفسِهِ ، وفِي ما أنزل من أجلِه . وكان قولُه تَعَالَى : **﴿ لَا رَيْبَ﴾** هادٍ على كمال تنزهه مِنْ كل نقصٍ ، فهو كلمةُ الله سُبْحانَه وَتَعالَى فإنّ قَولَه تعالى : **﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾** بيان لشرط الانتفاع بهذا الكتابِ العليّ الكامل المنزه عن كل نقصٍ ، بيانٌ لما يجبُ أن يكونَ عليْه حال المتلقينَه السَّاعينَ إلى الفهمِ عن الله تعالى :

أن يكونوا متقين صراطَ (المغضُوب عليهم) : الذين يعلمون الحَقَّ ولا يعمَلون بِهِ وأن يكونوا متقين صِراطَ (الضَّالين) الّذين يعمَلون على غير علمٍ ، فمن لم يتق هذين الصّراطين لن يكون ذلك الكتابُ الذي لا ريبَ فيه هدًى لهم ، ولن ينتفعُوا بما فيه ؛ لأنهّم لن يُحسنُوا التلقّي عنه وفهمه[1].

فشرطُ الانتفاعِ بالقرآن أن يتقِيَ العبدُ هذين الصِّراطين . وعلَى قدرِ اتقاء هذين الصّراطين يكونُ نصيبُ العبدِ من الانتفاع بالقُرآن . فبصّرنا سُبْحانَه

---

(١) تأويل «المغضوب عليهم» بأنهم اليهود ، وتأويل «الضّالين» بأنهم «النصارى» إنما هو بيان نبويّ وثيق النّسب إليْهِ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ (جامع الترمذي : كتاب : تفسير القرآن . من حديث عدي بن حاتم) .

وَبِحمدِه من أين يؤتى القارئُ حرمانًا مِن الانتفاعِ بالقرآن ، ومِنْ أيْن يُؤتى عطاءً وافرًا متكاثرًا .

وكلُّ هذا مِن فيضِ رُبوبيَّته ورحمانيَّته ورحيميَّته الَّتي أنبأنا بِها في مستهَلِّ سُورة « أمِّ القرآن » فالحمْدُ لله ربِّ العالمين .

وجاء البيان أن القرآن عربي ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف:٣)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (طه:١١٣)

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (فصلت:٣)

وبأنه بلسانٍ عربيّ مبين : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٦)

أمّا نعتُه القرآن بأنّه « عربيّ » فليس نعتًا لمصدره فهُو إلهِيّ المصدرِ إنساني الغاية ، بل هو نعتٌ لمنهجِه في الإفهام ، فهو يكشفُ لنا عن ما يجبُ أن يكون عليه منهاج تلقيه .

ونعته بأنَّه بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ كذلك تقريرٌ لأنّ منهاجَ بيانِه عَن معانِي الهُدَى إنّما هُو مِنْهاجُ اللسانِ العربيّ فِي الإبانةِ والإفهام .

المنهجُ الأمثلُ في التلقّي والفهم لأيّ بيانٍ إنّما هُوَ هُو منهج الإفهام ، حتى يتحقَّقَ التَّواصلُ بين المتكلم البيان ومتلقِيه .

فإذَا ما كان الإفهامُ بلسان ما ومنهج ما ، فلن يتحقق لك أن تتلقاه وتفهمَه إلاَّ على وَفق مِنهاج هذا اللسانِ الّذي كانِ به الإعرابُ والإبانةُ والإفهامُ .

هذا يستوجبُ على المُتلقِّي أن يكونَ البصيرَ بالسُّنة البيانيَّة لمن يتلقّي عنه ، بكلِّ ما تحملُه كلمة «السّنّة البيانيّة» مِن بصرٍ بالمُعجم الكلمِي ، وبِدلالتِه ، وبِمنهاج الدَّلالة ، وبِمُستوياتِها ظهوراً وخفاءً ، وإحكامًا واحتمالاً ، وقربًا وبعدًا . . إلخ ومِن بصرٍ بمنهاجِ التّركيب والتصويرِ . والبصرِ بمقاصدِ الإبانةِ ومغازيها . وضوابط تلقيها[1].

ونعته بأنَّه (مبين) هاد إلى الأساس العمدة في هذا البيان :

المفاصلة بين المعاني واتقاء تداخلها وتعاجنها بحيثُ لا تعرف حدود المعاني ومراحلها في حركتها . . .

(المبين) لا يدلُّ على الواضح ، ومن فسّر الإبانة والبيان بالوضوح فقد فسَّر الكلمة بلازم معناها .

الإبانة : مفاصلة بيْن حدود الأشياءِ مفاصلة تكشف عن حقيقة الأشياءِ وجوهرها وسماتِها ومعالمها ، ويترتَّبُ على ذلك أن تصير الأشياءُ المبانةُ معلومةَ المعالمِ والملامحِ ، وهذا لا يعنِي البتّة السُّفورَ بحيثُ يتساوَى النّاس في العِرفان بِها ، فهذا أمرٌ لا يكون ، والواقع يدفعه دفعًا .

* * *

تتجلّى لك قيمة هذا الضَّابطِ من جهةٍ ، وثقل القيام بالوفاءِ بحقه من جهةٍ أُخرى إذا ما نظرت في ما قاله الإمام الشّافعيّ :

« ولسانُ العربِ : أوسعُ الألسنةِ مذهباً ، وأكثرُها ألفاظاً ، ولا نعلمُه يحيطُ بجميع علمِه إنسانٌ غيرُ نبيٍّ ، ولكنَّه لا يذهبُ منه شيْءٌ على عامَّتها ، حتَّى لا يكونَ موجوداً فيها مَن يعرفه .

---

(١) ينظر : الرسالة للشافعي ، تحقيق شاكر(م . س) . ص : ٤٩-٥٣، والموافقات(م . س) ٦٥/٢

والعلمُ به عند العربِ كالعلم بالسُّنة عند أهلِ الفقه ، لا نعلمُ رجلاً جمَعَ السُّنن فلم يذهبْ منها عليه شيْءٌ»[1]

هي مقالة خبير بهذا اللسان خبرةً بلغتْ به حدًّا اتخذه فيه أهلُ العلمِ بهذا اللسان مصدرًا تؤخذ منه اللغة ، لا راوية لها[2].

قوله : «أوسعُ الألسنةِ مذهباً ، وأكثرُها ألفاظا» جعل الاتساع للمذهب ، والكثرة للألفاظ ، وفي هذا ما يهدي إلى أنَّ اتساع المذهبِ (منهج الإبانة) يجعل هذا اللسان قادرًا على أن يجرِي في مضماره كلُّ ذي معنًى وإن دقّ ولطف ، فهو لا يضيق على ذي عقلٍ ينتج من دقيقِ المعاني ولطيفها ونادرها وبديعها ، فهو متسعٌ لكل معنًى صَحيح أنتجه عقلٌ نصيح ، فإذا عجزأحد عن أن يعربَ عمّا في قلبه من المعاني ، فمرجع ذلك إلَيْه هو ، لا إلى اللسان الذي يتكلم بِه ، ألا ترى أنّه اللسانُ الذي وسع معاني الهدي التي جاء بها القرآن ، فحملها إلينا ووسع معاني الهدَى التي أوحاها الله سُبْحانَه وبِحمدِه لنبيه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ فجرت على لسانه بيانا حكيما؟ فمثل هذا اللسان كيف يعجزُعن أي معنًى أنتجه أيُّ عقلٍ ، وإن عظُم واستفحل ؟

فالذين يتكلمون بكلم أعجمي ويقولون لا نجدُ لمعانينا في العربية ما يعربُ عنها ، إنما هذا دالٌّ على جهالتهم بهذا اللسان ، فلوأنَّهم قالوا لا نعرف في العربية ما يُعربُ عنه لكان ذلك أصدق في وصف حالهم ، لا وصف شأن اللسانِ نفسِه .

وكثرة الألفاظ مع قلة عدد الحروف ، وأصول الكلم (المواد) هاد إلى ما لهذه العربية من فضيلة الاشتقاقِ والتوليد مما يمنح المتكلم قدرة على أن يستولد

---

(١) الرسالة للشافعي (م . س) ص ٤٣ .

(٢) آداب الشافعي ومناقبه ، تأليف ابن أبي حاتم الرازي (ت : ٣٢٧هـ) تحقيق : عبد الغني عبد الخالق . نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت . ط(١) عام : ١٤٢٤هـ ص ١٠١

من الأصل وفق منهاج العربية كلمة تتسع لمعناه . فلفتنا الشافعي إلى هاتين الفضيلتين في هذا اللسان مما يستوجب علينا أن نتعلم أولاً ، وأن نعلم أبناءنا ثانيا مهارتين :

مهارة العرفان بمذاهب الإبانة واتساعها ، والتطهر من التحجر في مذهبٍ من مذاهب النحاة ، فلسان العربية أوسع من عقل أي مذهب نحوي ، (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا) أي تبحثوا لها في لسان العربية عن مذهب يتسع لما نقول . ، فالشعراء أمراءُ البيان كما قالها الخليلُ[1].

والمهارة الأخرى : القدرة على الاشتقاق والتوليد من الأصول وفق منهج العربية في التوليد والاشتقاق . ومهارة التوليد على مستوى الكلم تفضى بصاحبها إلى القدرة على التّوليد على مستوى المعاني والكلام .

اتساعُ لسان العربية منهاج إبانةٍ ومذهب إفهام ، وكثرة ألفاظها وتنوعها في منهجِ دلالتها على معانِيها ، وفي مستوياتِ هذه الدّلالةِ من القربِ والبعد والظّهور والخفاء والإحكام والاحتمال . . . كلّ ذلك يجعلُ الإقدامَ على القيام لبيان بيان رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ حملاً ثقيلاً ، لا ينجُو المرءُ من معرة التَّقصير فيه إلا أَن يكون له من الله سُبْحانَه وَبِحمدِه عون وتسديدٌ ثم يكون للعبد من اتخاذِ الأسبابِ وامتلاكِها والاقتدار على استثمارها الكثيرُ .

---

(١) حفظت عن شيخي« عبد الكريم شعبان» رحمه الله تعالى أستاذ النّحو في كلية اللغة العربية عام ١٣٨٩هـ ، وأنا طالب في السنة الأولى كلمة مازلت أحملها عنه أحسن الله إليْه ، قال في المحاضرة الأولى : «النحوي لا يُخطئُ إذا تكلم ، ولا يُخطّئُ إذا سَمع»(اهـ)

وهذا من علم النحويّ باتساع مذاهب العربية في الإبانةِ والإعرابِ عن المعاني ، فله من القدرة على أن يجد لما سمع مَخرجًا في العربية ، فأدَّبنا أحسن الله تعالى إليه .

وشرحُ لسان الوحي يشترطُ فيه أن يكونَ القائمَ له قد بلغ في العلم بأسراره مبلغًا يبلغ فيه مبلغَ المجتهدِ بحيث يصيرُ فَهْمُ خطابه له وصفًا غير مُتكلّف ولا متوقف فيه في الغالب إلا بمقدار توقف الفطن لكلام اللبيب[1].

* * *

هذا الضابط بلغ فيه الشَّيْخُ مقامًا لا يخفى البتةَ على أحدٍ من تلاميذه وأقرانِه وكلّ من قرأ شيئًا ممَّا رقَّنت يمينُه ، فإنَّ له من العلم بهذا المنهجِ ما جعله محطَّ أنظار أقرانِه قبل تلاميذه ، فهو ذو فراسة بيانيّة نافذة في أغوار الكلم وتراكيبها ، وكأنّي به قد بلغ في تمكنِهِ من هذا الأمرِ ما حمل الكلم وتراكيبها على أن تفتح مغاليقها ، وتلقِي أستارها متحببة .

ولذا يُدهشك وقد أبصر في الكلمة أو التركيب معنى استلَّه من منهج العربية في الدَّلالة على معانيها ، ولذا لا تكاد تجدُ عنده ما يُمكنك أن تتوهم أنّه قد حمله على الكلم أو التَّراكيب .

مِن هذا ما تراه في مثلِ قوله وهو يتدبّر بناء قول رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » . ويهدينا إلى ما في بناءِ هذا البيان على قوله : (من اقتطع) وكيف أَنّ(مَن) هنا تحتمل أن تكون « اسمَ موصول» ، وأن تكون « شرطيّة» ثم يذهبُ بك لتبصر الفرق بين الاحتمالين ، وأيّهما هو الأعلى مقامًا ، وأوفرعطاءَ .

يقُول : « الحدِيثُ كما ترَى جُملةٌ واحدةٌ ، ولَكَ أن تعتَبرَ كلِمةَ (مَنْ) الّتي بُنِيَ عليْها الحديثُ « اسم موصول» ، وما بعدها صلةً ، وقولَه : « فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ النّارُ» هُوَ « الخبرُ » ، و« الْمَعطُوف» داخلٌ فِي « الْمَعطوفِ عَلَيْهِ» ويكونُ الكلامُ

(١) ينظر الموافقات : ٥/٥٣-٥٧

الّذي فعلَ كَذَا أو يَفعلُ كَذَا ، فَلَهُ كَذَا وكَذَا . ولَك أَنْ تَعُدّهَا شَرطًا وقولَه : « فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ النّارُ » جوابَ الشّرطِ ، وبيْنهما فرقٌ غامِضٌ جِدًّا .

وَأصلُ الفرقِ أنَّ الصّلةَ يَجبُ أنْ تَكونَ قِصّةً مَعلُومةً لِلمخاطبِ حتَى يَصِحّ بِها تَعريفُ الْموصُولِ ؛ لأنَّ الأصلَ فِيهِ أَنَّهُ نكرةٌ ، وهذا يَقتضِي أن يكونَ حَدَثُ اقتِطاعِ الْحقُوقِ بِالأيْمَانِ حَدَثٌ مَعرُوفٌ عِندَ كلِّ مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الْحدِيثِ

ولَيسَ هذا داخلاً فِي دَلالةِ « مَنْ الشّرطِيَةِ » وَإِنّما هِي أداة تربِطُ حدثًا بِحدثٍ أعنِي وُجوبَ النّارِ وَحرمةَ الجنّةِ علَى الاقتِطاعِ .

وَهذا فِي رأيي أنسبُ لدلالةِ الحديثِ ، وأنَّ كلّ مَنْ كانَ أو يَكونُ مِنهُ اقتطاعٌ كَانَ ذلكَ مَعلُومًا أو غيرَ مَعلومٍ ، فَقدْ وَجَبتْ لَه النّارُ ، وحرّمتْ عَلَيْهِ الجنّةُ »[1]

يستهلُ الشّيخُ ببيانِ أنَّ بناءَ العِبارةِ جاء علَى نَحوٍ يَضعُ بيْن عَيْنيك طَريقينِ وأنّك أنت الذي عليْه أن يُعمل كلَّ مدركاتِه لِيبصرَ أيّ الطريقين أرفعُ مقامًا ، وأوفرُ نوالاً ، وأكرمُ عطاءً .

يقول : لَكَ أن تعتَبرَ كلِمةَ (مَنْ) اسم موصولٍ ، ولك أن تعدّها شرطًا .

وهو يقدّم لك في الذكرِ ما انتهى إلى أنّ غيرَه الأعلى ، وأنت تلحظ أنّه قال فيه : (ولك أن تعتبرَ . . .) ، وأخَّرَ فِي الذِّكر ما سينتهِي إلى أنّه الأعلَى ، وعبَّر بقولِه (لك أن تعدّها) فكأنّه أشار بقولِه : (تعدُّها) أنّه أولَى بالاعتداد .

وَهُو يسلُك هذا المَسلك : البدءُ بما لَيس هو الأَوْلَى ، لِيقيمَك عنده لعلَّك تبصرُ فيه ما هُو لطيفٌ طريفٌ أو للتوثّق خلاءَه ممّا هُو الطَّريفُ اللَّطيفُ ، ثُمَّ إذا ما فرغتَ من استفراغ وُسعِك حَمَلك إلى الوجهِ الآخرِ الأعلَى ، فأقَامك فيه تُبصِرُ ، وحينئذٍ يتَأتَّى لك فرقٌ بيْن الذي كان قبل ، والّذي كان الآن .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٢٨، ١٢٩

التّرقّي من الأدنَى إلى الأعلَى فيه فتحُ بابِ التّطلعِ إلى الأسمَى وعدمِ الاكتفاءِ بما قُدّم ، فالقناعة في المعرفة ليست كنزًا لا يفنى[1]

ولو أنّه قدّم الأعلَى ثُم تلاه بالأدنَي لَتوَهَّمَ القارئ أنَّ له أنْ يكتفي بالأول ، وأن يُعرِض عَن الَّذي بعدَه ؛ لأنّه أدنَى ، فكان في هذا صرفًا له عَنْ أن يتبصّر بنفسِه أوَّلاً ، وأن يستشرفَ العطاءَ الأعلَى ثانيًا ، وهذا نهْجٌ مِن أنْهاج التَّربيةِ في القِراءةِ والتَّلقّي ، وهو مسلكٌ من مسالك صِناعة الرّجالِ الذين لا يأكلون إلا من عملِ أيديهم في زمنٍ يستعذبُ فيه الاستجداءَ والانتهابَ والاستلاب من نصَّبوا أنفسهم بِحدِّ السّيفِ سادةً على شُعوبهم

وهو يهديك إلى أنَّ بيْن الاحتمالين والتقَّديرين فرقًا غامضًا .

ونعته الفرقَ بالغُموض إغراءٌ لك بأن تَجتهد في أن تفتحَ أكمامَه بحُسنِ بصرك ، وَأَنَّ هذا ليس بالعسير عليك ، وأنَّ الذي سيقدمه لك بمَلكِك إنْ رغبتَ في أنْ تأكلَ مِن عملِ يدك أنْ تأكلَ ، ولذا يقدّم لك نهجًا في هذا يؤوب فيه ـ أحسن الله تعالى إليه ـ إلى الأصولِ الَّتِي حَمَلَها فِي باكر عمرِه مِن العلم

---

(١) روى الحاكم في المستدرك بسنده عَنْ أَنَس ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْهُومَان لا يَشْبَعَان : مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لا يَشْبَعُ ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لا يَشْبَعُ ». هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَلَمْ أَجِدْ لَهُ عِلَّةً » ورواه الطبراني في المعجم الأوسط والكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وصححه الألباني في صَحيح الجامع الصّغير وزياداته .

هذا الحديث قائمٌ على أسلوبيْن : الأول الإجمال والتفصيل ، والآخر : أسلوب المقابلة ، والعمدة هو أسلوب = المقابلة ، فهو الذي يقيم المرء أمام هذين المذهبين : منهوم في علم ، فلا يزداد إلا شرفًا وتحررًا من سطوة الجهلِ ، التي تتولد منها كلّ مبيرةٍ مهلكة ومنهوم في الدنيا ، فلا يزداد إلا فقرًا نفسيًّا وخضوعًا لمهانة الجشع التي تتولد منها كل مذلةٍ

وهذان لا يجتمعان البتة : لا ترى طالبَ علم طالب دنيا . بيْن الطلبيْن عداءٌ مستحكم فمن استفحل منهما محق الآخر محقًّا . فانظر أين أنت .

بلسانِ العربيَّةِ ومَا غرسَه الأشياخُ الأعيان في طُلاب العلمِ مِن البَصرِ بطبائعِ الأساليبِ ، وما بيْنها من فروق ، كلُّ ذلك هُو بِه يسلُكُ بك مسلك التّربيةِ على الفتوَّةِ في القراءةِ والتَّلقّي والفَهم واستثمارِ مخزون عقلِك وقلبِك ، وأنْ لا تكونَ حامل علمٍ لغيره ، بل تكونُ صانعًا ممَّا هو موجودٌ منه عندك ما ليس بموجودٍ عند غيرِك ، وذلك جوهرُ النَّصيحةِ للعلمِ وطلابِه وأهلِه ، كذلك يصنعُ الشيخ الرّجال .

يُريك الفرقَ الجوهري بين طبيعة الدَّلالة في(مَن) الموصولة ، و(من) الشّرطية . يُريك أنَّ بناءَ أمرِ(مَن الموصولة) على أن يكون مُكسِبُها التَّعريف (جملة الصّلة) قد بلغ من الشَّهرة حدًّا بالغًا يكونُ بملكه إكساب (من) التَّعريف ، فالشّرطُ في جملة الصّلة أن تكون أعرف أحوال المتكلم عنه . وأنَّ بناء أمر(مَن الشَّرطية) على الرَّبط بيْن حدثين[1].

---

(١) من أهل العلم مَنْ يفسّر هذا بأنَّ الثَّاني لا يكون إلا إذا كان الأوّل . تقول : مَن يزرْني أكرمْه ، فإكرامك له متوقفٌ على زيارته لك . والذي أراه أقرب أنَّ مبنى الشَّرط على أنّه إذا كان الأوَّل كان الثَّاني ، وليس الثَّاني لا يكون إلا إذا كان الأول ، لأنَّ الثَّاني قد تَكون له أسبابُ كَوْنٍ غير الأول ، فقد يتحقق إكرامُك له من غير زيارته لك . وما قولك : من يزرني أكرمه» إلاَّ إعرابٌ عن أنّه إذا تمت الزيارة فإنه لامحالة يتحقق الإكرام . ولا يلزم من هذا أنك تحقق أنه لن يقع منك الإكرام البتة إذا لم تتحقق منه الزيارة .

وما جاء في الحديث : «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». ليس الأعلى أن نقول يتوقف وجوب النّار والحرمان من الجنة على اقتطاع حق امرئ مسلمٍ بيمينه ، لأنَّ وجوبَ النَّار قد يكون بغير هذا الذّنب . والأولى أن نقول إذا وقع الأول(الاقتطاع) وقع الثاني(وجوب النار والحرمان من الجنة)

لا أغفل عن أنّ السياق قد يحملُ إلى تأويل الشرط على أن الثاني لا يكون إلا إذا كان الأول ، كما في (من شهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسُول الله دخل الجنة) ==

وبعدَ أن يقيمَ في بصيرتك مابيْن الضَّربين مِن فـرقٍ ، يـذهبُ بـك فيُوقِفُـك على مِعيار المفاضلة .

يُريك أنَّ الآنسَ بالسِّياق والقصدِ:سياقِ القولِ وسياقِ القراءةِ والتَّلقّي والفهمِ، والقصد من الإفهام النبويّ أولاً والقصد من التلقّي والفهـم ثانيـا أنّ الأخـذ بـأنّ (مَن) شرطية هو الأعلى مقامًا والأوفرُ عطـاء والأكـرمُ نـوالاً ، ذلـك أنـّك إنْ جعلتَ الأعلى (مَن الموصولة) لَتَشَبَّثَ مُتشبّثٌ أنَّ هذا الجزاء : (وجـوبُ النَّـار والحرمانُ مِن الجنّة) متوقفٌ على صَيرورة الجريرة مشهورةً عَن فاعلها ، وأنّـه مِمَّن مَرَدَ عليها ، فمَن فعلها مرّة ومضَى فلا عليْه ، كمـا تـراه في مسـلك غـيرِ قليلٍ مِمَّن ترى في عصرك ومصرك

فهذا المذهبُ في التّأويل مفسدٌ لحركةِ الأمَّة ، ومعُينٌ على انتِشارِ جريرةِ الاقتطاعِ والانتهابِ والاستلابِ .

والبيانُ النّبويُّ مبنيٌّ على التَّرهيبِ مِن أنْ يَحومَ المرءُ حول هذِه الجريرةِ مجرَّد حَومٍ ، ومَن ثَمَّ كان الأسلوبُ الَّذي لا يفهمُ مِنه الاعتدادُ بتكرار الجريرةِ واشتهارِها هو الأعلى في بابِ التأويلِ ، وهو الأوفقُ بمنهج النُّبوَّة في الإبانة والتّربية والأخذِ باليدِ علَى طريقِ الصَّفاءِ والتَّزكِيَةِ .

كذلِك يعلِّمُنا الشَّيخُ كيف نجعلُ الواقعَ : واقعَ مِنهاجَ الإبانةِ النّبويّة ومِنهاج التَّربيةِ مِن جِهَةٍ ، والواقعِ الَّذِي هُو سِياقُ القِراءةِ وَالتّلقّي والفهمِ عيارًا للتأويل والترجيح .

== دخول الجنة لا يكون إلا من تحقق الشهادتين ، فإن لم تتحققا لا يتحقق الدّخول . والسياق هنا سياق مقالي أي طبيعة مادة القول ، وليس السياق التركيبيّ ، فكثيرًا ما تكون طبيعة مادة القول أو المُتكلَّم فيه له حكمُ السلطان على طبيعة التركيب . ممَّا يوجب على المتفهمِ البيانَ أن لا يمارس تفهمه بطريقة تطبيقية صمّاء للقواعد الأغلبيّة . علينا أن نفرق بين ما يؤخذ من طبيعة مادة القول ، وما يؤخذ من طبيعة النظم . فليس النَّظم وحده هو رافد الإفادة . وإن كان هو سيّد روافدها .

وهذا يُقررُ في قلوبنا نَهجًا قويمًا في التَّأويل والتّرجيح : ليس كلُّ ما أمكنَ عربيّة أو عقلاً صحَّ الأخذُ به في التأويلِ والتّرجيح ، فإنَّ من وراء ذلك ما هو أحكمُ وأمجدُ وأحمدُ .

* * *

واسمعه يكشفُ لك عن حكمة الإبانة بقول النبيّ ﷺ : « وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ». من بعد قوله : « فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ » . ووجوب النَّار دالٌ على الحِرمان من الجنّة .

يقول الشَّيخ : « وجملةُ : (وَحَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ) فيها دقائقُ منها الطباقُ بيْن (أوجب) و(حرّم) وهوطباقٌ خفيٌّ ؛ لأنَّ (أوجب) توجبُ الفعلَ ، و(حرّم) توجبُ نفي الفعلِ ، ثمَّ فيه الطباق بيْن « النارِ » و« الجنّةِ » ثُم المقابلة بيْن الجملتينِ[1].

---

(١) كأنّي بالشيخِ يشيرُ بقوله بعد(ثُمَّ المقابلة بيْن الجُملتين) إلى أن المقابلة واقعة بيْن مضموني الجملتين فوق وقوع الطباق بين بعض مكوناتهما ، وكأنَّه يشير إلى أنّ المقابلة لا يكفي أن يكون الطباق بيْن بعض مكونات الجملة الأولى ومكونات الجملة الثانية دون أن تكون مطابقة بيْن المضمون الكلّي لكل جملة .
أنت إذا قلت : « سافر الرّجلُ وابنه وكلمت المرأة وبنتها » لم يكن من قبيل المقابلة بل من قبيل الطباقِ المتعدد بين (الرجل/ ابنه) و(المرأة/ بنتها) ؛ لأن مضمون كلّ جملة ليس ضد مضمون الجملة الأخرى . على الرغم ممّا بين (الرجل ، وابنه) من تقابل بالإضافة كذلك بين(المرأة وبنتها) وما بين (الرجل ، والمرأة) من تقابل ، وبين(الابن والبنت) من تقابل إلا أن ذلك لا يجعل من الجملتين مقابلة ، لأن مضمون الجملتين غير متقابلين ، بلْ هو عندي من الطباق المتعدد المناظر لما يعرف بالتشبيه المتعدد الذي جمع فيه بين المشبهات ثم جمع بين المشبه بها . كما في محمد في كرمه وشجاعته وحزمه كالبحر والأسد والسيف .
و« المقابلة » عندي ضربان كالتشبيه المركب :
الضرب الأول : تكون بين مضمون الجملتين من جهة ، ومطابقة بيْن مفردات ==

وهذا كلّهُ تحليلٌ للعبارةِ اللغويّةِ ، أمَّا المعنَى ، فإنّ وجوبَ النارِ يستلزِمُ

== الجملة الأولى ، ومفردات الأخرى ، فهي منهجًا كمثل ضرب التشبيه المركب حين يكون تقارب بين أجزاء المشبه المركب،وأجزاء المشبه به المركب. كما في قول الله تعالى :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الجمعة:٥)

والضرب الآخر : تكون بين مضمون الجملتين دون أن يكون بين مفرداتِ كلٍّ مطابقة ، كالمقابلة بيْن سورة « النصر »و« المسد»

والذي تجده في الحديث القدسي من قول الله سُبْحانَه وَتَعالَى فيما يرويه عنه رسوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ :

« إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا . . . » . (مسلم : البر والصلة والأدب) بين قوله : « إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » وقوله «وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا» مقابلة بين حال العبادِ وشأن الله سُبْحانَه وَتَعالَى . وهي مقابلة تصور عظيم رحمة الله تعالى ورأفته بعبادِه ، وتصوير عظيم ترغيب الله تعالى عباده في الهودِ إلَيْه والإنابة وفي هذا من تثقيف النفسِ ما فِيه . .

فإن صحَّ الذي فهمتُ ـ وأرجو أن يكون صَحيحًا ـ يكونُ تعريف المقابلة « أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب

والمراد بالتوافق خلاف التقابل» يفتقرُ إلى شرط هو التقابل بين مضمون الجملتين أيضًا كما في قول الله تعالى : ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا ﴾ (التوبة:٨٢)

فشرط المقابلة تحققها بين المضمونين وهذا يُمكن أن نمده فنجعلُ المقابلة كائنة بيْن سورتين ، وعلى هذا يكون عندنا طباقٌ مفردٌ وطباقٌ متعدّدٌ وطباقٌ مركب هو الذي نسميه (مقابلة) ولا نسمي غيره به ، وإفراده باسم من أنّه أعلى من حيثُ الصّنعةُ حيثُ التركيبُ أحوج إلى الصنعة ، لا نفرده باسم من حيثُ مطابقته لمقتضى الحال ، فقد يستوجبُ الحال طباقًا مفردًا ، فكل في موقعه بليغ ، والطباق المركب في القرآن أكثرُ حضورًا .

ونحن في حاجة إلى دراسات جادة فيه تكشف عن مقتضياته وعن صوره ومقتضى كل صورة ، وموقعه من الغرضِ المرحليّ والمحوري للسورة والفروق التركيبية بين كلّ صورة ، وأثر ذلك في المعنى ، وفي نفس المتلقّي .

تَحريمَ الجنّةِ ، فلِماذا ذكرتْ جملة : «وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» ما دام مدلولاً عليْها بالتِي قبلها؟

والذي عندِي فِي هذا أنَّ الحديث بُنيَ على التّشديدِ والتّغليظِ حتّى ينكفَّ النّاسُ عَن حقُوق غَيرِهم [1] وحتّى تُقطع ألسنتهم ، ولا يَحلِفونَ يَمينًا فاجرةً بالألسنةِ الّتي خلقها مَن يَحلِفونَ بِه ، لِيقتطعوا حقّ غيرِهم ، وحتّى لايكونَ فِي نفسِ أحدٍ أن يطمعَ فِي قَضيبِ أراكٍ فِي ملك غيرِه .

وكلّها معانٍ جليلة يدعُو إليها الحديثُ ، ويكفُّ عن أضدادها كفًّا زاجراً حاسمًا .

وسيّدنا رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ يعلمُ أنَّ الله تعالى لا يغفرُ أن يُشرك بِه ، ويغفرُ ما دونَ ذلك لِمنْ يشاءُ ، وأنَّ المقتطعَ حقّ غيرِه باليمين الفاجرةِ داخلٌ فِي هذه المشيئةِ ، ولذلك يُحملُ كلامُهُ علَى أنّه تحرّم عليْهِ الجنة ، فلا يدخلَها بدون سابقةِ عذاب ، وتجبُ له النّارُ ما لَم تتداركُه المشيئةُ ، فهذا التَّشديدُ ، وهذا التَّنفيرُ وراءه القاعدةِ التّي قلتُ : إنها تَزولُ الرّاسِيات ، ولا تزولُ ، وإنّها ممَّا أجمعَ عليْه مَن يُعتدُّ بإجماعهم مِن علماءِ السُّنة رضوان الله عليهم» [2]

---

(١) قوله : «والّذي عندِي فِي هذا . . . » كأنّه يلفتك إلى أنّ لك بل عليْك أن تجتهد في أن تبصر وجهًا آخر ، وألا تستغني بما قال عن أن يكون لك ما تقول ، وأن في الأمرِ متسعًا .

وهذا من حملِه القارئ على ألا يكون إمّعة واضعًا في عنقه ربقة التّقليد؟ فالتقليدُ غير المؤسس على مراجعة نافذة واعية هو ضربٌ من العبودية .

وقول الشيخ «بني على التشديد ...» لا يُفهم منه أنَّ بيان النّبوّة قائمٌ على المبالغة المتجاوزة حدّ الحقِّ في التصويرِ ، معاذ الله تعالى أن يكونَ ، بل هذا التَّشديدُ هو المستوجبه واقعُ الإثم والجريرةِ الّتي يُتكلمُ فيها .

(٢) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١٣٢، ١٣٣.

جاءت جملة «حَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» . ومنطوقها مؤكّدًا مفهومَ سابقتها «أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ» . وكان مقتضَى الظاهر ألا تأتي معطوفة بـ(الواو) كما هو ظاهرٌ قاعدة الفصلِ لكمالِ الاتصالِ عندَ البلاغيين .

عدَل بيانُ النّبوّة هنا عَن المعهودِ في هذا ، فأتى بـ(الواو) لا لتحققَ وصلاً بيْن الجُملتين ، فهُو مُتحقّقٌ على كَمالِه مِن غيرِها ، بلْ لِتحقِّقَ لفتًا إلى عُنصرِ المُغايرة بيْن الجُملتين .

نزع (الواو) مِن مِثل هذا يكونُ فيه نظرٌ إلى ما بيْن الجُملتين من اتفاق واجتماع ، ويكونُ الإتيان بـ(الواو) مَنظورًا فيها إلى ما بيْن المُعنَيين مَن تغايرٍ يُرادُ أن يَمنحَ حقّه مِن التلقّي والفَهم ، وكأنَّ هذا «المُقتطع» عُوقب بأمرين : بالتَّعذيبِ في النَّار وبالحِرمان مِن الجنَّة فاجتمعَ عليْه الأمران .

أمَّا دُخولُه النَّار فَبعدل الله تعالى استوجبَه العَبدُ على نفسِه بفعله ، وكان يُمكنُه أن يَقيها ذلك إن لَم يقتطِع وإن لم يجترئ على ربّه سُبْحانَه وَتَعالَى فأقسمَ باسمِه كاذبًا ، وأمّا عَدمُ دُخولُه الجنة فهُو مِن حِرمان الله تعالى له مِن فضلِه .

وكأنَّ اللهَ تعالى يَمنح فضلَه لِمن وفَّى نفسَه المخلوقة لله تعالى حقَّها عليه ، فيجعلُ في مقابل حفاظِه على حقِّ نفسِه المخلوقةِ لله تعالى عليه تفضل الله تعالى عليه بإدخالِه الجنة . وكأنّه سُبْحانَه وَتَعالَى ينادِي علينا : «أكرمُوا أنفسَكم يكرمْكم خالُقها .

وخروجُ البيان عمَّا هو مقتضى الظَّاهر في عطفِ المؤكِّد على المؤكّد غيرُ قليلٍ في بيان الوحي وبيان الإبداع ، وهذا يكونُ فيه منظورًا إلى السِّياق والقصدِ ، وأنَّ عُنصرَ المُغايرة هُو المقدّم بالعِناية تلقيًا .

وهذا يَهديك إلى أنَّ السُّلطان في العقلِ البلاغيّ ليس للقواعدِ الأغلبية بل للسّياق والقصدِ قبلَ القاعدةِ الأغلبية ، فالقاعدة يُعدل عنها أمّا السّياق والقصد فلا يُعدلُ عن مقتضاهما .

والشّيْخُ فِي قولِه : « فهذا التشديدُ وهذا التنفيرُ وراءه القاعدةُ التي قلت : إنها تزول الراسِياتُ ولا تزول . . . » وهي أنّ الكبائر التي تقع من المسلم وإن مات ولم يتب منها لا توجب عليْه الخلود والتأبيد في النار كما عليه الخوارج ، بل من قال « لا إله إلا الله » مصدقًا بها قلبُه مؤذنٌ بها لسانُه ومات على ذلك هو من أهل الجنة في مآل أمرِه ، وإن فعل ما فعل ما لم تنقض الشّهادة .

وهو يلحُّ على تقريرِ هذه الحقيقة في أكثرَ من موضع من سِفرِه في قلب القارئ لما يُحيط بالأمَّة من نعيقِ التَّكفير بالكبائر . وقد ابتليت الأمة بأمرين فادحين :

الأوّل : المسارعة بالحكم بالكفر ، قد بات التّكفيرُ أيسرَ على ثلةٍ من التّفسيق بل ثمّ نابتة من طلابِ العلمِ الخلاء من الحكمة يتهمون غير قليل من العلماء بفساد العقيدة وإن لم يجترجوا كبيرة لمجرد أنّه خالفه في تأويل آية ، أو حكم شرعيّ .

الآخر : الامتناع عن تكفير من يجب تكفيره . فكثيرًا ما نسمعُ من بعض الشيوخ في وسائل الإعلام يقول إنه لا يكفر أحدًا . بل ويترحم على من مات نصرانيا أو يهوديًّا .

هذا عجيبٌ ، كيف لا تكفر من يكفره القرآن والسنة ، أيمكن أن تقول عن غيرِ المسلم إنه ليس بكافرٍ إن مات على كفره كان من أهلِ النار خالدًا فيها.؟

الحق الذي نلقَى الله تعالى عليه أنّا نكفّر من لم يشهدْ بقلبِه ولسانه معًا أنّه لا إله إلا اللهُ وأن محمدًا رسول الله ، ولم يتبرأ من كل دين يُخالف دين الإسلام. لأن من لم يكفر من كان كفره صريحًا هو مثلُه . لأنّه إقرارٌ منه بأنّه على حقٍّ ، وهذا يُخرج صَاحبه من الملَّة .

الشيخُ حفي بالتَّرهيب من خطر التَّكفير ، وإخراج من يشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسُول الله من الإسلام بالكبائر .

* * *

واسمعه يتدبَّر ما رواه مسلمٌ من قول سيّدنا رسول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ : «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ» . قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ فَقَالَ «لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاَتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلاَ تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ» .

يتلبث عند قول النبي ﷺ «الَّذين تُحبونَهم ويحبونكم» ، واصطفاؤه فعل المحبة ، وصيغته ، وتقديمه (تحبونهم . . .) يقول : «قولُه عليْه السَّلام : «الّذين تُحبونهم ويُحبونكم» فيه نفحةٌ من البيانِ العالِي ، وذلك ؛ لأنّه عليْهِ السّلام لم يقلْ الذين يعدِلون فيكم أو الّذين يقُومون علَى رعايتكمْ ، ورعايةِ المُحتاجين فيكم ، ومثل هذا هو المتوّقعُ عند ذكرِ الولاةِ وإنّما قال «يُحبُّونكم» فاستوعبُ كلّ ما يفعلُهُ لَكمْ مَن يُحبّكم منْ رعايةٍ رشِيدةٍ لَكم ولأولادكم ، ولأحفادكمْ من تعليمٍ وَصِحة وتقدّم في البلاد.... إلى آخرِ ما يزرع الحبّ فِي قلوبِ المواطنين.

وقدّم قولَه : (تُحبُّونَهُم) على قوله (ويُحبّونكم) ليشير إلى أنّهم يقُومون ، وهم صَادقون على خدمتكم ، فتحبونهم ، ولم يصنعوا ذلك اجتلابًا لمحبتكم ، وإنما أداءً لواجبٍ ، لابدَّ أن يكونَ .

ولو قدّم (يُحبونكم) لربّما أفادَ أنّنا نُحبّهم ، لأنَّهم أحبّونا ، وليس هذا بِمرادٍ ، وإنّما نُحبهم لِصدقِهم ، وجِدّهم ..

وقوله عليْه السّلام : (وتصلّون عليْهم ويصلّون عليكم) الصلاة معناها الدعاء والفعلُ المضارع من هذا الذي قبله معناه أنّه حبٌّ يَتجدّدُ ، وصَلاةٌ تتجدّدُ ، وذلك بتجدّد إنجازاتهم النّاهضَةِ بالبلادِ ، وبتجدّد تجردهم ، وبعدِهم عن الرِّيبةِ ، وأنَّهم لا يقدِّمون إلا أصحابَ الكفاءاتِ . . .» [1]

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٠٢/١، ١٠٣ .

مقالُه هذا نفتقر إلى شيْءٍ من المكثِ فيه ؛ لنتبين بعضًا ممّا هو مكنونٌ فيه من الجوانب التَّربويَّة ومنْ جمالِ البيان النّبويّ :

قوله : «لأنّه عليْهِ السّلام لم يقلْ الّذين يعدِلون فيكم أو الّذين يقُومُون علَى رِعايتكمْ ، ورِعايةِ المُحتاجين فيكم ، ومثلُ هذا هو المتوّقعُ عند ذكرِ الولاةِ»

هذا من بابِ ما يعرفُ بالسّياق التبادليّ الذي يناظرُ ما هو قائمٌ في البيانِ بما يُمكن عربية أن يُقالَ .

وهو نهجٌ حثَّ عَليهِ الأعيانُ من الأئمةِ ، وهو يُبِينُ لنا عن قيمةِ الاختيارِ بيْن البدائلِ المُمكنةِ ، وما يقتضِي وجهًا دون آخر مُمْكنٍ عربيّة لا سِياقًا ، وعبدُ القاهر قد أكّدَ هذا : «واعلمْ أنَّه إذا كان بيِّناً فِي الشَّيْء أنَّه لا يَحتمِلُ إلاّ الوجْهَ الّذي هو عليه حتَّى لا يُشْكِلَ ، وحتَّى لا يُحْتاجُ في العِلم بأنَّ ذلك حقُّه وأنّه الصَّوابُ ، إلى فكْرٍ ورويّةٍ ، فلا مَزِيَّةَ[1].

وإنّما تكونُ المزيّةُ ويجِبُ الفضلُ إذا احتمَلَ في ظاهِرِ الحالِ غيرَ الوجهِ الَّذِي جاءَ عليه وجهاً آخرَ ، ثمَّ رأيتَ النفسَ تَنْبو عن ذلكَ الوجهِ الآخرِ ، ورأيتَ للذي جاء عليه حُسْناً وقبولا تعدمهما إذا أنتَ تركْتَه إلى الثاني»[2]

بل يُمكن أن يكون للوجه المتروك قيمة إلا أنها من دون المذكور ، فيكون في اختيارِ الأحسنِ وتركِ الحَسنِ دِقَّةً تعلُو دقّة اختيارِ المَقبول وطَرح المَرفوضِ .

وممَّا يَحسُن بكلّ شيخٍ أن يُحسنَ به إلى تلاميذِه أن يقيمَهم في سياقِ اكتساب مهارة الاستبدال ، ورؤية الفروق بيْن ما جاء به البيان وما يقام مقامَه

---

(١) أي فلا مزية للمتكلم في هذا ، وإن تكن هنالك مزية ترجع إلى اللغة نفسِها ، فهنالك ضربان من البلاغة : بلاغة ترجع إلى اللغة نفسِها ليْسَ للمتكلم في ذلك فضل كتقديم أدوات الاستفهام أوالنفي ، ونحوذلك ، وفي كتاب «الخصائص» لابن جني فيض من ذلك . وبلاغة ترجع إلى المتكلم بها ، وهذ ما يلتفتُ إليْه البلاغيون . .

(٢) دلائل الإعجاز : ص ٢٨٥ فقرة : ٣٣٥ .

على مستوى الكلم في سياقها ، ومستوى النَّظم ، في سياقِه فيجعلُ كلّ طالبٍ من طلاب العلم يُقيمُ مقامَ الحاضر في البيان ما يُقاربُه ثُم يوازنُ بيْن الأمرين ، فيرَى ما بيْنهما مِن مفارقة في المعنى ، وفي الدَّلالة عليْه مَع السّعي إلى أن يضعَ يده على موضعِ الحُسن أو غيرِه ، وأن يُبينَ عن العلة بعبارة كاشفة . فبِمثلِ هذا يكون لعلمِ البلاغةِ العربيِّ في قلب طالبِ العلمِ حضورُ الملكة التي لا تفارقِه .

وهذا فيما أذهبُ إليْه أنفعُ لطالب «علمِ البلاغةِ العربي» من أنْ يكتفِيَ بحفظِ كلّ مذاهبِ العلماء وآرائهم في كلّ قضية ومسألةٍ من قضايا علم البلاغة غيرَ آخذٍ بمسلك الموازنةِ بين ما هوقائمٌ وما هو محتملٌ .

* * *

الأهم هنا أنّ شيخنا يلفتنا إلى ما في البيان من العدول عمّا يقضية ظاهر سياقِ القول ، والعدولُ عن ظاهر الحال هو الغالبُ على البيانِ البليغ ، فلِخروجُ الكلام على نحوٍ لا يتوقع فيه من الفجاءة الخالقة لمتعةِ الدَّهش ولذته ما فيه ، وكلُّ ما هو معهودٌ مبذول قلّما تلتفت النفسُ السَّوية الماجدة إليْه ولذا كان من جمال مثوبة أهل الجنة فيها أن ما فيها من النّعيم لا يخطر على بال أحد منهم البتة ، وأنه متجدّدٌ ، لا يشعر أهل الجنة أنّه قد سبق لهم به لقيا فكل يوم كأنه أول يوم يدخلها .

وفي هذا العدولِ عن المتوقع أثرٌ بالغ في تقريرِ المعنى في نفسِ السّامع ، وهذا من برّ المتكلم بمعانيه ورعايته وحياطته أولاً حيثُ يمكّن لها في القلوب ، ومِن البرّ بسامعِيه أيضًا ، فهو يعينُهم على أن تبقى المَعرفةُ نافذة في قلوبِهم مَكينة ومَحفوظة مِن عَوادي الغفلة فضلا عَن النِّسيان .

وقول الشّيخ : «وقدّم قولَه : (تُحبُّونَهُم) على قوله : (ويُحبونكم) ليشيرَ إلى أنّهم يقُومون ، وهم صَادقون على خدمتكم ، فتحبونهم ، ولم يصنعوا ذلك

اجتلابًا لمحبتكم ، وإنّما أداءً لواجبٍ ، لا بُدَّ أن يكونَ .» فيه التفاتٍ إلى تدبر خصائص الترتيب بيْن ما كان تقديمه لأمر لا يرجع إلى معنى من معاني النحو، وحكم من أحكامه ، بل إلى أمرٍ يرجع إلى حالِ المتحدث عَنه ، والمتحدثِ إليْهم ففي ذلك ما يهدِي إلى أنَّ أسرار النظم ليست بمنحصرة في توخِي معاني النحو وأحكامه فيما بيْن معاني الكلم في بناء الجملة أو فيما بيْن معاني الجمل الواقعة موقع الكلم في بناء الفقر ، بلْ منها ما يرجعُ إلى ما وراء ذلك .

عبدُ القاهر حين أبان عن أنَّ النّظم توخي معاني النّحو فيما بيْن معاني الكلم على وفق الأغراضِ والمقاصد لم يكن بذلك محاجزًا عمَّا وراء ذلك ، بل هو هادٍ إلى المبدأ والأساس الذي يبنى عليه .

والوقوف عند ما وقف عنده عبد القاهر في هذا البابِ ، وغيرِه عقوق بمنهج الرّجل . فحقه علينا ـ طلاب العلم ـ أن نفعل فيما ورَّثنا ما فعله هو فيما ورَّثَه أسلافه من العلم . ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ (الرحمن:٦٠).

تبصّرُ أسرار بلاغة التقديم أمتع في باب تقديم ما ليس له رتبة إِعرابيّةٌ

والتشاغلُ عن ذلك فيه من الغبن للنفس ما فِيه ، وعُظم ما في بيانِ الوحي قُرآنا وسنة من هذا البابِ الذي ليس له رتبة إعرابية . وهو أوفر عطاءً وأوسع ميدانًا ، وأعمق غورًا ، ألا ترَى أنَّك بحاجة بالغة جدًّا إلى فيضٍ مِن الفراسة البيانيّة ومهارة التدبّر والتّذوّق لتتبصر أسرارَ بلاغةِ تقديم سورة «الفلق» على سورة «الناس»

ما يزال في باب التقديم في بيان الوحي قرآنًا وسنة ما لم يستزرع ، يحتاج إلى

أخي عزماتٍ لا يريد على الذي ... يهم به من مقطع الأمر صاحبا
إذا همّ لم تردع عزيمةُ همه ... ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا
إذا هم ألقى بين عينيه عزمهُ ... ونكب عن ذكر [العَوائق] جانبا .

يلفتنا الشَّيْخُ إلى أنَّه إذا ما كان لوليّ الأمر حقٌّ على شعبِه ، فإنَّ لهم عليه حقًّا ، وهو مكلّفٌ بأن يبدأ بأداءِ ما عليْه ، ثم يطلبُ حقه من السَّمع والطّاعة في المعروف ، ومِن التَّقويم إن أخطأ . . . فوليُّ الأمر حقّ شَعبه عليه مقدمٌ على حقّه عليهم ، لأنّه صاحب سّلطان وقوة ، فالأقوى هو الأولى بأن يبدأ بأداء ما عليه لمن هو دونه ، فعلى وليِّ الأمرِ أن يبدأ بإكرمِ شعبِه ورعايتِه وحمايتِه وهدايتِه إلى الَّتي هي أقومُ ، وحينئذٍ يكونُ مِن شعبِه محبتُهم له .

وفي هذا العدولِ عن المتوقعِ أثرٌ بالغٌ في تقريرِ المعنى في نفسِ السّامع ، وهذا من بِرّ المتكلم بمعانيه ورعايتِه وحياطتِه أوَّلاً حيثُ يمكّنُ لها في القلوب ، ومِن البرّ بسامعيه أيضًا ، فهو يُعينُهم على أن تبقَى المعرفةُ نافذةً في قلوبِهم مِكينَةً ومحفوظةً مِن عوادِي النِّسيان أو الغفلةِ .

* * *

وفي قول الشيخِ : «ولو قدّم (يُحبونكم) لربّما أفادَ أنّنا نُحبّهم ، لأنَّهم أحبّونا ، وليس هذا بِمرادٍ ، وإنّما نُحبهم لِصدقِهم ، وجِدّهم» بيان أنّ بيان النّبوة يهدِي إلى أنّ ولي الأمر يستحق المحبة من شعبِه بصدقِه في رعايته ، لا مكافأة لهم بمحبته لهم ، فهو مكلفٌ بالصّدق والإتقان في ولايته وإن لم يتحقق له محبتهم له ، لأنه إنما يعامل الله سُبْحانَه وبِحمدِه في شعبه ، ، فشعبه ليس طرفًا في التعامل ، بل هو محلّ التعامل مع الله سُبْحانَه وتَعالَى ، فعليْه أن يفرقَ بيْن طرف التَّعامل ، ومحلِّ التَّعامل ، فإذا فعل حمله ذلك الفهم القويمُ إلى أنْ يبدأ بالصِّدق فيلقي الله سُبْحانَه وتَعالَى المحبة في قلوب شعبه .

والله تعالى يقُول لرسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال:٦٢،٦٣)

أمّا أنهم يحبونه لأنه يُحبُّهم وإن لم يقمْ بما عليه لهم من تقرير الحق ونصرِه وصناعةِ الخير ونشرِه ، فليس هذا هو النهجُ الأقوم . وفي هذا رسمٌ لمعالم العلاقة بيْن السُّلطان وشعبِه[1].

وبقوله : « وإنّما قال « يُحبُّونكم » فاستوعبَ كلّ ما يفعلُهُ لَكمْ مَن يُحبّكم » يلفتنا إلى ما في اصطفاء كلمة (يحبّونكم) من تحقيق بلاغة إيجازِ القصر ، فهو مِن جوامع كلمِه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، فهو يَصطفِي من الكلم ما هو فتيٌّ مقتدرٌ عَلى أن يحملَ في رحمِه فيضًا مِن دقيقِ المعانِي ولطيفِها وطريفِها ، فيُغنِي عن ذكر كثيرٍ ، وهذا من عناية رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ بالوقتِ ، فلا ينفقُه في بسط يُغني عنه إيجازٌ ، وفيه أيضًا إقراءٌ لسامعيهِ : يَصطفِي لهم ما يحملُهم إلى التّبصُّرِ والتَّفكُّر في تَثويرِ كلمه وكلامه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ ، فيَسْتطعِمهم لذَّةَ التفكيرَ والتدبّر والتذوّق ، فيشعرون بنعمة اصطفاء الله تعالى لهم وتكريمهم بنعمةِ الفهمِ ، فيقبلون على ربّهم عَزّ وجلَّ إقبالَ المُحبِّ لِمن أنعمَ عليهم ، ويعرفون لله تعالى فضله . فكلٌّ من ذكَّرك بنعمة الله تعالى عليك فقد أحْسن إليك وذكَّرك أيضًا بمقامك عند ربك سُبْحانَه وبِحمدِه ، فتقومُ مقامَ العُبوديّة بيْن يديه سُبحانه وتعالى .

---

(١) محبةُ الشَّعب لولي أمرِه ملكًا أو رئيسًا أو مادون ذلك لا تمثلُها محبةُ طائفة من حوله ينتفعون بقربهم منه أو ينتفعون بمسلكه المخالف لمرادِ الله الشرعيّ على نحو ما تراه من محبة طائفة من الناس لحاكم غشوم ظلوم ، فمثل تلك المحبة لا يعتدُّ بها هنا ، بل المعتدُّ به هو محبة أهل الفضل والعقلاء ، والضعفاء من شعبِه الذين يحبونه عن بصر بما يحبونه منه ، وليس محبةً تولدت فيهم مما ينفثه في أسماعهم صباح مساء سحرة إبليس . ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ﴾ (الإسراء:٣٦).

وقوله : « وقوله عليْه السّلام : (وتصلّون عليْهم ويصلّون عليكم) الصلاة معناها الدُّعاء والفعلُ المُضارع من هذا الّذي قبله معناه أنّه حبٌّ يَتجدّدُ ، وصَلاةٌ تتجدّدُ . . . . .)

يشير الشَّيخ إلى أنّ الواجب على وليِّ الأمر أن يكونَ فعله لشعبِه متجدداً لا ينقطع ، ولا يكفِي بأن يصنعَ لهم مرة أوْ مرات في أول عهده ليمكِّن لنفسِه وبطانته ، فإذا ما استولَى على مقاليدِ الأمر قلب لهم ظهر المِجنِّ .

وفي اصطفاء كلمة (صلاة) مراداً بها أصل وضعها اللغوي : « الدّعاء » إبلاغٌ في أنّهم إذ يفعلون ذلك الدّعاء إنّما يتقربون به إلى الله سُبْحانَه وَتَعالَى ، فيرون في الدُّعاء لولِيِّ أمرهم زلفَى لربِّهم الذي أكرمهم بذلك الولىّ ، وكأنَّ في هذا الدُّعاء شكراً لله تعالى على هذه النّعمة ، وفي هذا ما يفهم منه أنّهُ ﷺ يلفتنا إلى أنّ الله سُبْحانَه وَبِحمدِه إذا أكرمنا بذلك الوالي الذي يحبنا ونحبه لأنّه أقام أمرَه وأمرنا على مراد الله الشرعي إنما هونعمة من اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه عليهم ، ولك أن تتصور حال شعبٍ يرَى في وليّه أنّه مِن نعم الله عليهم أيُّ سلام اجتماعي يقيم فيهم ، وأيُّ تراحب نفسيّ يكون فيهم . ؟!!!

ولك أن تتصور أيضًا كيف يكون حال شعبٍ يشغل سُجوده بيْن يدي ربه تعالى بالدعاء على حاكمه ، ولا سيما حين يكون ذلك من علماء الأمة وحكمائها ، وعقلائها ، وفقرائها وضعفائها والمهمشين منها وساكني المقابرِ وملتقطي طعامهم من نفاياتِ أكابرِ القومِ على ما ترَى عينك وتسمع أذنك في مصرِك .

وفي الصلاة (الدُّعاء) المتبادل من الوالِي وشَعبِهِ دلالة على ما يقُومُ في قلبِ كلٍّ من رغبةٍ فِي أن يكونَ كلّ على الوجه الأفضل الأكملِ الأجمل ، وأنّ كلاً يلجأُ إلى الله سُبْحانَه وَبِحمدِه المقتدر على أن يُحقق لكلّ ما يَعجزُ الدَّاعِي عَنْ تحقِيقِه للمَدعوّ لَهُ ، وكأنَّ فيه شائبةَ اعتذار من الدَّاعي أنَّه قد استفرغَ جهدَه في

النَّصيحة له ، وفي أن يُحسنَ إليه ، وبقي له مِن الحقِّ عليْه ما لا سبيلَ له إلى تحقيقه إلاّ بأن يضرعَ إلى الله تعالى أن يتولّى ذلك عنه ، وفي هذا إعلانٌ من كلّ للآخر أنّه مقصّرٌ في الوفاءِ بكمالِ حقّه ، وأنّ حقه أكبرُ ممّا بذله له ، وهنا يتلاشَى الإحساسُ بالمنّ على الآخر ، والإحساس بأنّه المتفضل عليْه .

مثلُ هذه المعاني حين تقومُ بيْنَ وليّ الأمرِ وشعبِه لا يكونُ سبيلٌ لأيٍّ من الأعداء أن يَمَسّ هذه العلاقة الحصينة بأيّ ضُرٍّ مهما بالغَ في المكرِ .

كذلك يهدينا سيّدنا رسُولُ الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ إلى ما يجبُ أن تكونَ عليْهِ العلاقةُ بيْن وليّ الأمر ومَن استرعاه الله تعالى ، فإذا قرأت واقع عصرِك ومصرك في مرآة هذا علمت أين نحنُ .

* * *

ومن احتفاء الشيخُ بمواقعِ الكلم واصطفائها في سياقاتٍ لا تأنس بغيرها ما نراه في تذوقه كلمة (حلاوة) في قول سيّدنا رسُول الله ﷺ : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ . . . » . يهدي إلى أنّ « كلمةَ (حلاوة) أوقعُ من كلمةِ (طعم) لأنّ الطّعم قد يكون حلواً ، وقد يكون مرًّا ، وقد يكونُ أحلى ، وقد يكون أمَرّ مع أنَّ طعم الإيمانِ لا يكونُ إلاَّ حلواً ، وتبقَى كلمةُ (حلاوة) أوقعَ ؛ لأنَّها نصٌّ على المقصُود ، وإضافة الحلاوة والطعم إلى الإيمان أدخلُ فِي تصويرِ المعنَى ؛ لأنها أسبغتْ علَى كلمةِ الإيمان معنًى جديدًا ؛ لأنّ الحلاوةَ والطعمَ لا يكونانِ إلا فيما يذوقُه اللسانُ ، والإيمانُ حقيقةٌ معنويّةٌ ، وكأنّ صَاحبَ الإيمانِ الحيّ ، والمذكورِ فِي الحديثِ وجدَ الإيمانَ قد استحالَ فِي يقِينِه إلى شيْءٍ مَحسُوسٍ يَجدُ له لذةً فِي قلبِهِ ، كالَّذي يجده اللسان فِي حلاوةِ الطعوم . . . » [1]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٣٨/١ .

يقيمنا الشّيخُ أولاً مقامًا يثيرُنا ، ثمَّ يحملُنا إلى ما يقينا من هذه الإثارة : قال أولاً إنَّ كلمة : (حلاوة) أوقعُ من كلمة (طعم) ، مِنّ أن كلمةَ (طعم) أعمُّ من كلمة (حلاوة) .

هذه نظرةٌ إلى حالِ الكلمة خارج السّياق ، وهذا يثيرُ القارئ ، فَيجدُ في نفسِه قبلَ أن يمضِي في القراءة ما يهمسُ في قلبِه : أليست كلمة (طعم) في هذا السّياق تجرَّدت عَن عمومِها بالإضافة ، فكانت إضافتُها إلى (الإيمان) قد أحدثتْ تخصيصًا في عمومها ، فلم يبق الطَّعم بهذه الإضافة إلا طعم حلاوةٍ ؟

هذا الذي يُهمسُ بِه في قلبك قبل المُضِيّ في القراءة ، ثُمَّ يأتي قول الشَّيْخُ ، (مع أنَّ طعمَ الإيمانِ لا يكونُ إلاَّ حلواً) مطفئًا هذا التساؤل المهموسِ به في قلبك .

وكان بملك الشّيخ أن يسلك طريقًا مباشرًا ، فيقول بدءاً : ليست كلمة (الحلاوة) هنا لتنفي عنك ما هو قائمٌ في كلمة (طعم) لأنّ الإضافةَ في (طعم) أقامت (طعم) في مصافّ (حلاوة) ولكنّه أراد إثارةَ التَّساؤل في قلبك ليأتي بيانُه وأنت في هذا التَّساؤل ، فيخرجك منه ، فيكون أَوقع في قلبك . وهو نهجٌ من أنهاج التثوير والتَّهيئة ليتحقّقُ حسن التلقّي .

وهو يلفِتك إلى أن الفرق بيْن البيان بكلِمة : (حلاوة) هنا وكلمة : (طعم) المضافة إلى الإيمان ليس مناطه التَّخصيص ، بل لأنّ النَّصّية في كلمة : (حلاوة) نصّيةٌ ذاتيّةٌ : لم تأتها من الإضافةِ ، بينما كلمة (طعم) نصيّتها إِضَافيّة : جاءتها من الإضافةِ إلى كلمة (الإيمان) وما كان ذاتيًّا هو الأحكم والأقوى ممّا كان إضافيًّا .

والإضافة في : (حلاوة الإيمان) جاءتْ لبيان نوع هذه الحلاوةِ . لبيانِ أنّها حلاوةُ إيمان ، وليست مطلقَ حلاوة ، فإنْ تكن (الحلاوةُ) على عمومِها أيًّا كانت هي ممّا يُحببُ إلى النّفس ، فإنّها حين تَكُونُ حلاوة إيمانٍ يكونُ وقعُها

أعظمَ ، فالإضافةُ هنا إضافةُ تصوير عظيم فضلِ هذه الحلاوةُ على سائر صنوفِ الحلاوةِ وفنونِها .

ويَبقَى قول الشّيخ : « لأنّ الحلاوةَ والطَّعمَ لا يكونان إلا فيما يذوقه اللسان.... » ومخرجه إحالةُ الحقائق العقليّة إلى حقائق حسية ، والنّفسُ أسرعُ تلقيًا وأقوى تأثرًا بما هو حِسيّ .

هذا مسلمٌ عندِي من وجهِ سرعة التَّأثر وقوته ، أمّا أنَّ ما هو معنويٌّ فرعٌ عن ما هو حسيّ وأنّ المعنوي علاقته بالحسي علاقة المجاز بالحقيقة ، كما يذهبُ إليْه بعضُ أهلِ النظرِ فلي فيه نظرٌ : إنّي لا أذهبنَّ إلى أنَّ أصلَ الكلم التي لمعانيها وجهان : حسيّ ومعنويّ أنَّها موضوعة للحِسيّ ، ثم يتفرعُ منه في مرحلة تالية الوضع المعنوي .

وليس كلُّ كلمة موضوعةً لمعنى واحدٍ أو وجهِ واحد من المعنى ، بل ثَمّ كلمات وضعت لمعنى ذي وجهين : الأول حسيّ والآخر معنوي ، وليس أحدهما أصلاً للآخر ، بل هما توأمان مُنقسِمان من أصلٍ واحدٍ .

لا أذهبُ إلى أنَّ الحلاوة والطَّعم وضعا أوَّلا لما هو حسيّ مذاقٌ باللسانِ ، ثُمَّ ينقلُ بطريق المشابهةِ إلى المعنوي .

الَّذِي أذهبُ إليْهِ أنّ مثلَ هذه الكلمِ موضوعٌة ابتداءً للمعنيين معًا من غير مُفاضلةٍ ولا تقديم أحدِهما على الآخر في الوُجود ، وإن كان هذا التَّقدمُ قد يكونُ في الحُضورِ في النَّفسِ المستقبلة ، وهذا يختلفُ مِن شخصٍ إلى آخر ، ومن سِياقٍ إلى سِياقٍ ، فأمرُه غيرُ راجعٍ إلى الوضعِ ، بل إلى حال التلقي وصانعِه .

والقولُ بأنَّ التّبادر أَمارةُ الحقيقةِ غيرُ مسلَّمٍ ، فإنَّ عواملَ التَّبادُر ليس مرجعُها إلى أسبقيةِ الوضع ، فكثيرًا ما يتبادرُ إلى الفهمِ ما يعدّه كثيرٌ من أهلِ

اللغةِ مِن المجازِ . فالقولُ بالتَّبادُرِ أمارةُ الحقيقةِ قولٌ غيرُ مُنضَبِطٍ ولا مطّرد ، وما كان كذلِك لا يصلحُ أن يكونَ ممَّا يُستأنسُ بِهِ فضلاً عَنْ أن يسْتدلّ بِه . .

والمعاني تتبادرُ إلَى الذّهن وفقَ عواملَ عديدة منها القرائنُ المُحيطةُ بالاستعمالِ ، وهذه القرائنُ لازِمةٌ لكلّ كلمةٍ مستعملةٍ ، فلا تُوجدُ كلمةٌ في سياقِ الاستعمالِ إلاّ وهِي مصحوبةٌ بالقرائنِ الهاديةِ إلى معناها ، والكلمة المُجرّدة عن صُحبة القرائنِ إنْ لفظيّةً أو حاليةً إنّما تكونُ خارجَ السّياق الاستعماليّ ومعناها غير منضبِطٍ ، وكلامنا إنّما هُو في الكلمةِ في سِياقِ الاستعمال . والالتفات إليها خارجه لا وزنَ له ، و الاشتغالُ بها ليس من عملِ العقلِ البلاغيّ في شيْءٍ .

مجملُ الأمرِ أنَّ كلمة (حلاوة) تدلُّ على الجانِبين معا الحِسيّ المذاق بالجارحة ، والمعنويّ المذاق بالطَّبع . وليس استعمالُ الكلم في المعنويّ مجازًا عن معناه الحسيّ ، بل هِي استعمال لأحد وجهي ما وضعت له ، والقرينةُ هِي الّتي تهدِي إلى استعمالِها في أحدِ الوجهين ،فهي قرينة مُعينة على حُسن الفهم .

* * *

ومن هذا التفات الشّيخ إلى تغايرُ نظم الجُمل وإن تقارنت لتَغاير معانيها ، وإلى دلالة العُدول في استعمال حروفِ المعاني وهو يتبصر معاني الهدى في قول رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ « ثلاثة لا يُكلّمهم اللهُ يَوم القيامةِ ، ولا ينظرُإليهم ، ولا يزكّيهم ، ولهم عذابٌ أليم».

يلتفتُ أولا إلى استمرارِ الجُملِ الثلاث : « لا يُكلمهم الله يَوم القيامةِ ، ولا ينظرُإليهم ، ولا يزكّيهم» على نسق واحدٍ أمَّا الجملة الرّابعة : « لَهُم عَذابٌ أليمٌ» فكان لها نسقٌ آخرُ ،مِن أنَّها في معنَى غيرِ الّذي كانت له الجُمل الثّلاث، ويُبِينُ لك عن أنّ هذِه الثلاثُ تدورُ حولَ أصلٍ واحدٍ ، وهُو أنَّ الله سُبْحانَه وَتَعالَى الّذي هومالكٌ يوم الجزاءِ أهملَ شأنَهم غاية الإهمالِ ، فلا كلامَ ،

ولا نظرَ ولا تَزكيةَ ، أقول إذا كانت الجُمل الثّلاث تدورُ حول أصلٍ واحدٍ ، فإنّ هذه الجُملَة تدورُ حول أصلٍ آخرَ . وفي مقامٍ آخرَ .

وهنا معنًى مسكوتٌ عنه ، وهو أنّهم بعدَ الموقف الذي تُجزى فيه كلّ نفسٍ بِما كسبتْ ، وكان من اللهِ تعالى معهم ما كان ودخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ ، وَأَهلُ النّارِ النّارَ ، وهؤلاء لهم عذابٌ أليم .

وراجع الكلامَ فِي قولِهِ (لهم) وكأنه استحقاقٌ استحقوه ، وكسبٌ اكتسبوه ، وملك امتلكوه ، وفيه شوب السُّخريةِ بِهم .

وهي جملةٌ حاليّة جاءتْ معها «الواو» لتشِير إلى أنّ مضمونَها يوشكُ أن يكونَ معنًى مستقلاً تقُومُ بِه جملةٌ مستقلّةٌ ، وليْستْ جملة فضلةُ تابعةً لغيرها ، وأن معنى الاستئنافِ المستكِنّ في «واو الحالِ» يتحركُ ويومئُ ويذكر بالاستئناف»[1]

يشير شيْخُنا بقوله : (وهُؤلاء لَهم عذابٌ أليم) إلى أنّ هذا زائدَ على ما كان لغيرِهم من أصحابِ النَّارِ لما كان منهم من كبائرَ استزرعت في الأمّة فساداً مستطيرا .

الخيلاءُ والعُجب فيه تطاولٌ على الآخرين ، فيزرعُ في القلوب الشَّحناء والبغضاء وتلك الحالقة ، والمنّ فيه ادعاء ما لله تعالى من أنَّه هوالمُنعِم المنَّان ، وهذا من الذّنوب المُبيرة ، لأنَّه لم يشرك غير الله تعالى معه ، بل أشرك نفسَه مع الله تعالى .

والحلفُ بالله تعالى كذبا ليحوز دنيا فانية فيه من الجراءَةِ على الله سُبْحانَه وَتَعالَى ما فيه وفيه من استحقار ما عند الله تعالى في جنب ما يريد اكتسابه بيمينه الفاجرة ، فآثرَ متاعَ الدّنيا الفانِية على نعيم الآخرة الباقِية فهذِه الآثام

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مُسْلِمٍ : ١/٧٤، ٧٥ .

ظاهرُها أنَّها صغيرةٌ وهي في حقيقتِها الحالقة ، فكان أصحابُها أحقَّاء بمزيد عذاب أليم لهم عليها فوق ما يكونُ لهم من العذابِ على غيرِها . وفوق ما يكون لهم من عدم تكليمهم وعدم النّظر إليهم ، وعدم تزكيتهم .

ويلفتنا الشَّيخُ بقوله : (وراجع الكلام في قوله : لهم . . .) إلى ما في العُدول إلى هذه (اللام) من تصويرٍ لحقيقةِ أصحابِ هذه الكبائرِ ، فقد سَعَوا بأفاعيلهم إلى أن يمتلكُوا في الآخرة عذابًا أليما ، وكأنَّهم كما كانوا في الدُّنيا شَغُوفين بأن يكونَ لهم من متاع الدُّنيا ما يزيدُهم على غيرِهم تميزًا ، هم يحرصُون على أن يكونَ لهم من العذاب ما يمتازون بِه على غيرهم من أهلِ النار ، فعمادُ شخصيتِهم حبُّ التّفرُّد ، ولو بما هو العذاب الأليم ، ومن كان هذا عمودَ شخصيته أفيكون ثَمَّ عاقلٌ يُمكن أن تكونَ له بهم مقاربةٌ ؟!!!

هم بهذا أحقاءُ بأن يحاجزهم المجتمع وأن يعزلَهم عن حركة الحياة ، فـ(اللام) صوَّرت لنا سعيهم في الدنيا أن يكون لهم هذا الضربُ من العذاب .

وفي الإعراب عن العذابِ بأنّه «أليم» ما يهدِي إلى أنّ أفاعيلَهم كانت تُوقعُ بالنَّاسِ مِن الألم ما لا يُطاق ، كانوا مَصنع إيذاء بأفاعيلهم للنّاس فحقّ عليهم أن يكونَ عذابهم من جنس أفاعيلهم .

ويهدينا الشَّيْخ بقوله : (وهي جملةٌ حاليّة جاءتْ معها «الواو» لتشِير إلى أنّ مضمونها يوشك أن يكونَ معنًى مستقلاً تقُومُ بِه جملةٌ مستقلّةٌ . . .) إلى أثر هذه «الواو» في الجملة الحاليّة الَّتي الشَّأنُ أن تكونَ تابعةً لجملةِ صَاحب الحالِ ، فترفعُها (الواو) من هذا المقامِ التَّبعيّ إلى مقام الاستقلال ، واستحقاق العناية المستقلة في التلقي والفهم .

فما في (واو) الحال من معنى (العطف) لم يقتدر على أن يحرمها من الاستقلال ، بل أبقاها موصولة بالتي قبلها وجردها عن التبعيّة . ومن ثَمَّ لا يكونُ العطف دائمًا يجعلُ المعطوف تابعًا للمعطوفِ عليْه تبعية تامة ، فهوإن تبعه إعرابًا قد لايكون دونّه في قدر الأهميّةِ .

وإذا ما كان هذا في عالم البيان فإنّه في عالم صانع البيان (الإنسان) كذلك ليس المعطوف على إخوانه لابد أن يكون تابعًا ، بل له من الاستقلالِ ما يطلقُ قدرته على أن يبدعَ وأن يكونَ له في الحياةِ موقعٌ متفرّدٌ ، وإن كان معطوفًا ومعطوفًا عليه ، فالعلاقة بيْن النّاس يجبُ أن تقومَ على التَّواصُلِ الّذِي لا يُدمَغُ فيه أحدٌ بالتَّبعيّة علَى نَحوِ ما تُريدُ الأحزابُ السِّياسيَّة والتَّنظيماتُ الثَّقافية والدَّعوية . . . من أتباعها الالتزام بمبدأ الولاءِ والبراءِ والنزول على رأي الأغلبية وإن كان خطلاً براحًا بواحًا . وإلا وجب طرده من الحزبِ أو الجماعة .

هذه (الواو) تأتي حينا ، فتكون سببًا لاستحقاق ما بعدها التبعية لما قبلها وتأتي حينا فترفع عمَّا بعدها هذه التَّبعيّة التي تستحقُّها بحكم وظيفتها وموقعِها من الجمل وتكسبها استقلالاً وندّيةً ومضارعة للجمل الأُخر .

وبهذا يلفتنا الشيخُ إلى أن لا نتلقَّى البيان تلقيًا حرفيًّا نُنزل القواعد على البيان ، فنجعل السُّلطان للقاعدةِ ، كلاَّ ، للسياقِ والقصدِ أثرٌ بالغٌ في مكان القاعدة من فقه البيان .

وملاحظةُ السّياقِ والقصدِ في التلقّي والفهم مهارةٌ لا تكون عند كثيرٍ ، وهذه تفتقر أولاً إلى طبعٍ وقريحةٍ ثمَّ إلى ثقافةٍ ودُربةٍ ومُمارسةٍ وحنكةٍ . وإلا كان السّامع في تلقِيه أسِيرَ القاعدة ، والقواعدُ العلمية إنما يَبعثُ فيها الحياة والفاعلية السَّياق والقصدُ .

وأنت إذا ما تتبعت مقالة الشّيخ في شأن الجملة الحالية في بناءِ المعنى وتشكيله رأيتَ ما إنْ أحصي في أسفارِه لكانَ زادًا وافرًا غَنيًّا مغنيًا في العرفان بالخصَائصِ البلاغية للجملة الحالية في بيان الوحي ، وفي بناء الإبداعِ .

* * *

الضَّابط الخامس :

« تجاوز النَّظر المَوضِعيّ إلى أُفق الرُّؤية الموضوعية لا يُضيرُ نعمة الفهم والتلقّي كمِثل النَّظرة التَّجزيئية في قراءة البيان البليغِ معنًى ومبنًى ، وكمثلِ التقوقعِ في الموضِع ، والتّحاشِي عن امتداد الحَركة في جنباتِ الموضوع والتعبّد بالقراءة « العِضين »

فالشَّأنُ في البيان العالِي البديعِ وفوقه البيانُ العليّ المعجز أنّ بعضَه يفسّر بعضًا ويُكملُه ويفعّله ، وإنارتِه من داخلِه لا من خارجِه ، وهذا يحمل القارئ المُتفهم على ألا يتسارع إلى تعيين المعنى ممّا بيْن يديه حتى يستوفي النَّظر في مَا جرى في موضوعه كلّه ، لِتَتَحقَّق له الرُّؤية المَوضوعيّة السَّابغة المقابلة للنظرة الموضِعيةِ التجزيئيّة ، لأنَّ البيانَ العالي إنّما يخرجُ مِن نفسٍ واحدةٍ سويَّةٍ ، فلا يُمنَى هذا البيان بشيْءٍ مِن التّخالف والتعاند ، وإن اتَّسم بشيءٍ من اختلاف بعضِه عن بعض في تصريفِ المعنى اختلافَ تكاملٍ ، فكما أنَّ اختلاف الثّلةِ الواحدة مِن النّاسِ في أقوالهم وأفعالهم في أمرٍ واحد إنّما هو فطرةٌ ، وكلُّ ما كان من الفطرةِ مخرجُه هو إلى الإصلاح والتكامل أقربُ ، فالعُقم في التّناسخ ، فإنَّ الأمرَ كذلك في عالم البيان ؛ لأنَّ التقاربَ بيْن عالم الإنسان وعالم البيان في هذا جد فتيّ .

وهذا تراه بينًا جليًّا في صنيع الشّيخ وهو يفقه بيان النبوة في حديث « لا يزني الزَّانِي حين يَزنِي وَهو مُؤمن » في صحبة فقه حديث « أربعٌ مَن كنَّ فيه ، كان مُنافقًا خالصًا » ، وحديث « آية المنافق ثلاث » وفي صُحبة « ثلاثة لا يُكلمهم الله »

وكذلك صنيعه في فقه : حديث « إنه سَتكونُ هناتٌ وهنّات . . . » في صُحبةِ حديث « إنّه يُستعملُ عليكم أمراء ، فتعرِفون وتنكرون » وفي صُحبةِ حديث : « خيار أئمتكم الذين تُحبونهم و يُحبونكم . . . » فيجمع الأشباهَ والنَّظائرَ في

الموضوع لِينيرَ له كلَّ واحدٍ من هذه الأحاديثِ ما حمله كلٌّ من دقيق المعاني الإحسانيَّة التي لا تتبينُ لأيٍّ إلا حين تُستنارُ الأحاديثُ ببعضِها ، لأنّها جميعًا تخرج مِن مشكاة ، وتجري في سياقِ موضوعٍ واحدٍ ، وإلى غايةٍ واحدة ، فهذه الاستنارةُ تمنحُ الأحاديث ترابحًا ، وتمنحُ القارئَ رحابةَ رؤيةٍ للمكنُونات في تلك الأحاديثِ وعمقَها .

والشّيخ يرقَى إلى ما هو أسمَى من ذلك منهجًا ، فَيضمُّ إلى ذلك نظرَه لما كان في البيانِ القُرآنيّ مِن آياتٍ تجرِي في سياقِها في الموضوعِ نفسِه ، وهذا مِن عنايته بالفهم المَوضوعيّ للبيان .

وإذا ما كان جمعُ نصوص البيان في موضُوع واحدٍ من غيرِ كلام الوحي قرآنًا وسنة يكشفُ ما فِي هذا البيان من تخالفٍ وتباينٍ قد يبلغ حدّ التّناقض ، فإنَّ ذلك في بيانِ الوحي قُرآنا وسنة يبصّرنا ما في هذا البيَانِ الوَحيِ مِن اتساقٍ وتناسبٍ موضوعيّ على امتدادِ سياقِه الكليّ المديد ، لا يقلُّ البَتَّة عن ما فيه مِن تناسبٍ واتساقٍ وتآخٍ أسلوبي في السّياق القريبِ ، وهذا وجهٌ مِن وجوهِ إعجاز البيان الوَحي قرآنًا وسنّة[1]

وهـو يعمَدُ إلى ما تقاربت أو تطابقت فيه صُور العقابِ من الآثام ، فينظرُ ما هو قائمٌ في هذه الآثام يجمعُها ليجعل عقابها متقاربًا أومتطابقًا . وهذا يعنِي أنَّ الآثامَ وإن تنوَّعَتْ في صورِها ، وأدواتِها وكان فيها معنًى جامعًا هُو المَعنَى الأكثرُ خطرًا في كلّ إثم دلَّ البيانُ على ذلِك بأنْ يَجعلَ جزاءَ هذِه الآثامُ متقاربًا

---

(١) ينظر شَرحُ أحاديثَ مِن صَحيح مُسلِمٍ : ١/٤٠، ٤١، ٥١، ٦٣، ٦٦، ٦٩، ٧٢، ٨١، ٨٣، ٨٤، ٩٣، ١٠١ .

يلاحظ أن بيان النّبوة عَبّر بـ« شرب الخمر » (ولا يشربُ الخمرَ حين يشربها) ولم يعبر بالسّكر ، ليهدينا إلى أنّ شرب الخمر ولو لمرة واحدةٍ وإن لم يتحقق منه السّكر هو محرمٌ ، فلا يعلل محدثٌ أنه لا يسكر حين يشربُ الخمر ، فعلة التحريم في حقه منتفية ، فلا يكون واقعًا فيما حرّم الله تعالى . فَسَدَّ بيان الوحي الطريقَ عليْهِ .

أو متطابِقًا ، وهذا مِن نهجِ الإبانةِ الدَّقيقِ ، والشَّيخُ كلفٌ بدلالتِنا علَى ذلِك ، بلْ وإبرازِه لنا ، حتَّى لا نَغفُلَ عَن المَعنَى الجَوهَريّ في كلّ إثمٍ ، فيَتبيَّن لنا مِن فِقهِ هذا المَعنَى مَا يَستحِقُّه مِن العقابِ .

لا ريبَ في أنَّ الآثامَ جميعَها يجمعُها معنًى واحدٌ من ذلك أنها على غيرِ مُراد الله الشرعِي ، وأنَّها ذات أثر سيئ في الحياةِ . . . ، فمثل هذا فيها أشبهُ بما يجمعُ البشرَ فِي انتسابِهم إلَى سيّدنا « آدم» عَليْهِ الصّلاة والسّلامُ ، وهذِهِ العلاقةُ العامّة ، لا يسْتغني بِهَا العقلُ البلاغيُّ ، بل هُو يَسْعَى إلى استكشافِ علاقاتٍ أُخر لها خصُوصِيّة ، وإلا لكانَ كلّ العالَمِين تجمعُهم علاقةُ عامَّة هي أنَّهم مِن خلقِ الله سُبْحانَه وتَعالَى ، ومثلُ هذا لا يُكتفَى به ، ومِن ثَمّ فإنَّ فِي مُلاحظة اتفاقِ الآثامِ في العقُوبة أوتقاربِها ما يهدِي إلى أهميّة البحثِ عَن المَعنى الخاصّ الّذي يجمعُها لتختصّ بتلك العُقوبةِ .

وهذا تجدُه في القرآن كثيراً حين يُعبّر عن بعض الآثام بأن لأصحابها عذاب مقيم ، وبعضهم له عذابٌ شديدٌ ، وبعضهم عذاب مهين وبعضهم عذاب أليم .... إلخ ، أويعرب عن النّار باسم خاص : جهنَّم ، الجحيم ، الحُطمة ، سقر . . . فهذا التَّنوع في نعتِ العذاب أو النارِ فيه دَلالة على أنّ ما كانت عقوبته العذاب المهين فيه معنًى ليس فيما ما كانت عقوبته عذاب أليم . فليس كل مهين إليمًا ، وليس كلّ أليمٍ مُهينًا . وفيه دَلالة على أنَّ مَن كان مصيرُهم «الحُطمة» كانَتْ أعمالُهم الَّتي عُوقبُوا عليْها بها فيها خُصوصية تتلاءمُ مَع مدلول النَّعت بـ«الحُطمة» لا يكونُ في أعمالِ مِن كانتْ عُقُوبتهم «الجَحيم»...

في هذا هدايةٌ إلى ان نستجمعَ الآثام التي توحّدت عقوبتها أو تقاربتْ ، ونبحث عَنْ أَمرٍ خاصٍّ يجمعُها ، لنتوصلَ إلى أسبابِ الوقوعِ في هذه الآثام ، ولنتبصَّرَ عواملَ اتقاءِ الوقوعِ فيها ، وهذا مِن فضلِ جمالِ ربانيّتِهِ سُبْحانَه وبِحمدِه

* * *

وتراه ينظرُ إلى ما بيْن «الزّنا» والسّرقة «وشربِ الخمر» والانتهاب والغلول، فيهدينا إلى أنَّ في تغليظ النَّهي عنها معا وجمعها في سياق لفتًا إلى أنَّها فاعلة في المجتمع ما يدمره، ويُبيره، فَفي النَّهي عنها حمايةُ الله سُبحَانَهُ وتَعالَى النّاسَ من النّاسِ وحماية المرءِ من نفسِه «لأنّ الدّين حماية ورعاية وصلاح للجماعةِ وأمنٌ وأمانٌ في الجماعة، وأمنٌ وأمان للفرد، وليس تكاليف تعوقُ حركةَ الحياةِ، وتحدّ حرية الإنسانِ وتعود به إلى عصورِ التخلف ...»[1]

وكتاب الشَّيْخ ملآن بهذه النظرة الموضُوعية السَّابغة الجامعة لأقطار القولِ في الموضوع الواحد.

ومخرجُ هذا اليقين بأنّ هذا البيانَ النّبويّ إنّما هو متنزّلٌ معناه من أفقِ الوحي، وخارجةٌ صُورته من نفس محمّدية صنعها القرآنُ لا تعتريها الأغيارُ المثبّطة فضلاً عن الأغيار المُفسدة. فإذا جاء البيانُ عنْ شيْءٍ في سياقٍ زمانيّ أو مكانيّ أو حاليّ ثم جاء أخرَى في غير الزَّمان والمكان والحال، فإنَّه لا يكونُ إلا متآخيًا مع سابقه، تآخي لاحقِه به. ولا يأتى إلاّ أنْ يكونَ في اللّحاق إضافةٌ إلى ما في السّباق، ممّا يُغرِى المُتلقي ويَحمله إلى الاجتهادِ في جمع هذه التَّنزلات، والنَّظر فيها جمعاء.

وأهلُ العلم بالبيان قديمًا نصُّوا على أنَّ هذه النَّظرةَ المَوضُوعيَّة السّابغة فريضة في صَنعةِ العقل المتلقّي محاسن البيان[2].

* * *

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١/٢٧، ٢٨.

(٢) ينظر في هذا الموافقات فِي أصول الشريعة. للشاطبي كتاب: الأدلة الشرعية. الكتاب الثاني في الأدلة على التفصيل. المسألة الثالثة عشر: لابد من ردّ الكلام ليعلم المقصُود (م. س) ٣/٣٥٠.

الضابط السادس :

« العنايةُ بتعيين المقصِد من البيان وضبطِ حركةِ الفهم لما يجرِي في سبيله إلى هذا المقصد .

مِن شأن كلّ بيان بليغ أنّ له مقصِدًا أعظم يسوق كل أمرِه لتحقيقه ممَّا يجعل هذا المقصِدَ هو الضَّابط لكلّ مكوناتِ البيان في صورتِها ومحمولِها ، وموقعِها ، وعلاقتِها بسباقِها ولحاقِها .

ومقصديّةُ البيانِ عاملٌ رئيسٌ من عوامل تحقيق تماسُكه تماسكًا يقيمُه في أفق التَّناسبِ والتَّآخي .

وهذا أمرٌ قد عُني به أهلُ النَّظر في البيان ، وقد أُثر عَن أهل العلم بالشّعر قولُهم « بيتُ القصيدِ » أيْ البيتِ الّذي يقومُ فيه المعنى الأميرُ والمعنى الأمُّ . فهو بيتُ القصيدة ، وكلّ ما سِبقِه أو لحقه عَلى امتداد القصيدة هو في سلطانِه ، ومن رحمه خرج ، وإليه تنتهي حركته .

وأهلُ العلم بالقرآن يعينون لكلّ سورةٍ مقصودًا أعظم ، بل يجعلون للقرآن كلّه مقصودًا أعظم ، فقول الله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (الفاتحة:٥) هو الآية الأمّ التي لا تجد في القرآن آيةً إلا وهي خارجةٌ منها ، وراجعةٌ إليها .

والشَّيْخُ جدّ حفيّ بهذا الأمر ، فمن يقرأ صنيعه في ما كتبه من تدبر (آل حم) وما رقنه في تذوّق قصائد من الشّعر الجاهليّ يدرك أنّ هذا الضّابط قائمٌ في صنيع الشيخ ، فهو كلفٌ بتحرير هذا المعنى وربط موضوعات البيانِ وصُوره به . والأمر كذلك في قراءته بيان النّبوة .

هو الحفيّ بتعيين الجملة أو الكلمة التي تكون تكثيفًا لمحورِ القصد الذي يبنى عليه البيانُ بحيثُ يكونُ هذا القصدُ المتجسّدُ في هذه الجملةِ أو الكلمةِ أو السَّاكنُها كما يقُول الشَّيخُ حاضرًا في كلّ معاقد البيان وفِقرِه حضورًا ضابطًا

حركة المعنَى في تمدُّدِه حينًا وتصاعدِه حينا واستطرادِه حينا وارتدادِه حينا إلى آخر ما تكون عليه حركة المعنى في البيان

* * *

وهو يُبيِّنُ لنا عن أهميَّة الكشفِ عن الجُملة الأمّ في البيان وقيمتها الوظيفيَّة في التلقي والفهم : « وحين نقُولُ هذه الجملةُ هِيَ رأسُ الْمعنَى ، كأننا نَقُولُ هِيَ العقلُ الموجّهُ لِكلِّ جزيئات الْمعنَى الوارِدِ بعدها ».

ثم يُبيّن لنا عن خصائص هذه الجُملة وما تتسم به في صناعتِها وصياغتِها : « وأهمّ ما يلفتُ فِي الجملِ الرُّؤوس هذه أنّها بُنيتْ على الشُّمول المُتَّسعِ جدًّا ، والمُنضبط جدًّا .. » (١)

والوقوفُ على هذا الأمر الكليّ إنّما هُو ثمرةُ استقراءٍ وتحليلٍ وتأويلٍ ومراجعةٍ ، ثم يُستخلصُ هذا الأمرُ الكليّ ، كما يقضى المنهجُ الاستقرائِي للبحثِ العلميّ على ما أبنتُ عنه في موضعٍ مُتقدم مِن هذه الأوراق .

ولو أنَّا استقصينا النَّظر في ما كتبه الشَّيخُ هنا ، وفيما سبقه من أسفارٍ لجمعنا غيرَ قليلٍ مِن الكُلياتِ المَنهجِيّةِ والأسلوبيةِ الَّتي استنبطَها الشَّيْخُ بالاستقراءِ .

* * *

وهذه الجملة التي يتوطّنها القصدُ المحوريّ للبيان لا يلزمُ أن تكونَ جملة رئيسة إعرابيًّا ، فقد تكون جملة من جهة المنزل الإعرابي لها قيدًا لغيرِها . وهذا يلفتُ إِليْه الشيخ كثيرًا ممّا يعنِي أنّ القول بأنَّها جملة (فضلة) أي ليست نسيبةً في قبيلتها (البيان/ النّص) لا يصفُ قيمتها الوظيفيّة ومنزلتها في بناء

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ٣٩٦/١ .

المعنى وضبط حركته ، فليست الجُملُ بمنازلها الإعرابية بل بأقدارها الوظيفية في ضبط حركة المعنَى . وهذا له في عالم الإنسان صانع البيان شبيه : ليس كلُّ شريف النَّسب هو المقتدرُ على أن يضبطَ حركةَ الحياةِ في قومِه ، بل قد يفعلُها من هو خادمُه من حيثُ النّسبُ ولكنّه الأميرُه من حيثُ الحسب .

ألا ترى أنَّ سَيّدَنا رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ قد أمَّر أسامة بن زيد رضي الله عنهما على أعيان الصحابة في إحدى الغزوات؟

ألا ترَى أنّ عمرَبن الخطاب رَضي الله عنه حين أراد أن يستخلف قال لو كان سالمٌ مولى أبي حذيفة رضي الله عنها لاستخلفته .

الجملةُ والكلمةُ باقتدارها لا بموقعها الإعرابيّ كما الإنسانُ قيمته بحسبه (ما يُحسبُ له أو عليه : أعماله ومهاراته واقتداره) وليس بنسبِه ، فالمقصدُ قد يسكنُ جملة هي عند النّحاة فضلة (ليست قرشية النَّسب) والشَّيْخُ يبحثُ عن هذه الجملةِ مَسكنِ القصدِ في كلِّ حديثٍ يقوم إليه متفقهًا متلقيا .

هُوَ الحفيّ بلقيا شيخ القبيلة أولاً وتفرسهِ عظيمَ قوْمٍ ، ليُحسن البصرَ بعدُ بأحوال أبناءِ قبيلته ، فالنّاس على دين ملوكهم . وكذلك الأمر في عالمِ البيان . أنتَ تبصرُ صَنيعَ الشّيخِ هذا فِي كلِّ حديثٍ تقريبًا .

من هذا ما تراه في فقهه الحديثِ الأول في كتابِه : «لا يزني الزاني حينَ يَزنِي وهو مؤمنٌ» تسمعه يقول :

«وقَولُه علَيْهِ السّلامُ» «لا يزنِي الزّانِي حينَ يَزنِي وهوَ مؤمنٌ» المعنى في هذه الجملة مَعقُودٌ كلّه في الجملة الْحالية (وهُوَ مُؤمِنٌ) والجُملةُ الأمُّ وِطاءٌ وَمِهادٌ لهذه الجملةِ ، وهذا كثيرٌ جدًّا في الكلامِ ، تَرَى الْمَعنَى الأمّ لَيْسَ مُتعلّقًا بالجملةِ الأمّ ، والحديثُ كلُّه من هذا الباب ، وقد تكرّرَتْ هذه الجملةُ بلفظِها

خمسَ مراتٍ فِي هذا البيانِ العالِي لتأكيدِهَا ، وتثبِيتِها فِي النّفوسِ لِتحفظَها ؛ لأنّها هِي موطِنُ الزّجرِ وَالوَعِيدِ والغضَبِ وأنَّ مَن يُزاول مُنكرًا مِن هذه المنكراتِ المُهلِكةِ لِلجماعَةِ لا يزاولُ وقد بقيَ إيمانٌ في قلبِه ...» [1].

ويقُول : «وجملة (وَهُو مُؤمنٌ) بنيتْ بِناءً حيًّا ثَرِيًّا ، يتلاءمُ مَعَ مَكانَتِها فِي الحديثِ الشّرِيفِ ، وقد بُنِيَ الْحديثُ عَليْها ، ؛ لأنها مقصِد المعنى فِي الجملِ المذكورةِ ، والمعبّرةِ عن الخطايا المذكورة» [2]

ومن ثَم عُني الشيخ بتحليل بناءِ هذه الجملةِ ، وهي على وجازتها زاخرةٌ بطلبةِ النّظرِ البّلاغي ، وما تمتازُ به عن أترابها من صِيغِ الحال فِي العربيّة .

وتسمَعُه يقرأُ في ما رَواه مسلم بسنده من أنّه دَخَلَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ عَلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنه وَهُوَ وَجِعٌ فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : إِنِّى مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا لَمْ أَكُنْ حَدَّثْتُكَهُ :

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ «لاَ يَسْتَرْعِى اللَّهُ عَبْدًا رَعِيَّةً يَمُوتُ حِينَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهَا إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» . قَالَ أَلاَّ كُنْتَ حَدَّثْتَنِى هَذَا قَبْلَ الْيَوْمِ قَالَ مَا حَدَّثْتُكَ أَوْ لَمْ أَكُنْ لأُحَدِّثَكَ .

فيقول : «الأصلُ الذي يدورُ عليْهِ هذا الحديثُ بروايتيه هو كلمة (وهُو غاشٌ لرَعيّتِه) وما قبلَ هذه الكلمةِ هُو طريقُ سيْر المعنى المُتوجه إليْها ، وما بعدَ هذه الكلمةِ هُو تعقيباتٌ وتعليقاتٌ عليْها . وهذا طريقٌ فِي بناءِ المعانِي ظاهرٌ ومتميّزٌ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٢٩/١ .

(٢) المرجع السابق : ٣٢/١

وأنا مولعٌ باكتشافِ الجملةِ أوالكلمةِ الّتي هي القلبُ أو التِي هي العمودُ الّذي عليْه الاستقرارُ ، والّذي عليْهِ المَدَارُ . وهذا مِنْ كلامِ العلماءِ .

وَهذِه الكلمَةُ الّتِي هِي القلبُ إذا فتحتَ معانِيها وجدتَ فيها الكثيرَ أو أكثرَ مَا في الحديثِ . .» [1]

ومجملُ الأمرِ أنَّ الشَّيخ حفيّ بأن يقيمَ في قلوب القُّراء أنّه لا علاقة بيْن القيمةِ الوظيفية للجملة والقيمة الإعرابية لها ، فليس بلازمٍ أن تكونَ الجملة التي يسكنُها المعنى الرئيس جملة هي الرّئيس إعربًا ، بل قد تكون جملة قيدًا إعرابيًّا ، ولكنّها مُسكن المَعنى المليك ومعدنه . يقُول :

« وقوله عليْهِ السّلامُ (يَموتُ حينَ يَموتُ وهو غاشٌّ لها) أولاً أُنَبّه إلى أنّ الجُملةَ التي قلتُ إنّها جَذرُ هذا الحديثِ وعمودُهُ الَّذِي عليْهِ المَدارُ هِيَ كلمةُ (وَهُوَ غاشّ لَها) وَهِيَ جملةٌ حاليّةٌ مِنْ فَاعِل « يَموتُ » ثُمّ هِيَ جملةٌ اسْمِيّةٌ ، جاءتْ بـ(الوَاوِ) لأهميّةِ المَعنَى ، والْعِنايَةِ بِه .

وَإنّما أردتُ أنْ أنبّه إلى حالةٍ تَكثُرُ فِي بناءِ المعانِي ، وهِيَ أنَّ الجملَةَ الحاليّة كثيرًا ما تكونُ هِي الوِعاءُ اللُّغويُّ الّذِي فِيهِ خُلاصَةُ المعنَى وَصَفوُهُ أوْ كثِيرًا ما تكونُ هِيَ اللؤلؤةُ الأمُّ ، ومُجتَمَعُ الْخُيُوطِ الْمُضِيئةِ الّتي حينَ تَجتمعُ تُشرِقُ بالمَعنَى الأصلِيّ .

وَلِذلِكَ كُنتُ ، ولا زِلْتُ أُفكّرُ فِي دراسَةِ مَواقع المعانِي فِي الجُملِ التّوابعِ فِي ديوان شَاعرٍ ، وأنْ يُستقصَى ذلك فِي دواوينَ كثيرةٍ أو في كلِّ الدّواوين ؛ لأنَّ العجيبَ أنَّ الجملةَ الّتِي هِيَ مَسْكنُ أصْلِ الْمَعنَى نُسَمّيها فِي الإعرابِ « فَضْلَةً » ونَقُولُ فِي تعرِيفِ « الحالِ » : الحالُ فَضْلَةٌ مُنْتَصِبٌ » وَهَذَا تَبَاعُدٌ

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/١١٥ .

شَـديدٌ بَـيْنَ مُصـطلح «الإعـرابِ» وَالمعَـانِي الْمـدلولِ عَلَيْهـا دَاخِـلَ هَـذَا الإعراب...»[1]

وليس بلوغُ حِمَى هذ بأمرٍ ميسورٍ أنتَ بالغُه مِن أوّل الأمـر ، بـل لا بـدّ أن تتّخذَ منهجَ «الحالّ المُرتحِل» تطـوّفُ في البيـانِ سبعًا أو سبعين ، ثُـم تلـزم متعلّقًا بالأستارِ تسكبُ العبرات ، وحين إذِن يَنفتحُ لك البابُ إلى مركز البيان ، فتلجُ[2].

رؤيةُ المعنى الأُمّ لا يُمكنُ التَّحقّق منها إلاَّ بالتَّدسُّسِ في كلِّ جُملةٍ مِن جُملِ البيانِ وفِي كلّ فِقرةٍ وفي كلِّ نجمٍ من نجومِه ، وفِـي كـلِّ مَعقـدٍ مِـن معاقِـدِهِ ، حتَّى تتوثّقَ مِن حُضُـورِهِ ، وتتوَثّـقَ مِـنْ أنَّ جميـعَ مُكونـاتِ البيـانِ اتّفقـت في حضورِ هذا المعنى فِيها ، وتفاوتْ فيه ظهوراً .

وهذا الأمرُ يشتدُّ حين يمتدُّ البيانُ وتتسعُ أقطـارُه وتَتَنـوَّعُ معاقِـدُهُ ، فيكـونُ لِكُلّ مَعقِدٍ غـرضٌ مَرْحَلِـيٌّ خاضِـعٌ لِغـرضٍ مِحْـوَرِيٍّ هُـوَ العُمـدَةُ ، والمَحَـجُّ الأقدَسُ ، هُو شَيْخُ القَبِيلةِ الَّذِي تُقبِلُ عَلَيْهِ كُلُّ أَبناءِ القَبيلَةِ[3]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١٢١/١ .

(٢) يفتح الشيخُ بهذه العطيةِ بابًا وسيعًا لمشروع علميّ يتلاقَى فيه طلاب الدراسـات العليـا الجادون سنين عددًا إذا ما نصحوا كان لهم ولكلياتهم وجامعاتهم ثم للعلـم مـن قبـلُ ومن بعد من الخير الوفير ما لا يُستْحصَى . ومثل هذا لا يقـوم بـه إلا مـن لا يرضـى لنفسِه وكليته وجامعته وقومه ودينه إلا بأن ينحت من الجبال بيوتًا ، أمّا أولئك الـذين يبنون بيوتا هم ومشرفوهم من الرّمل على شواطئ البحار فسحقًا سحقًا .

(٣) سُميت القبيلة كذلك مِن أنّ لها شيخًا هو كعبتها ومأمّها ومحجّهـا ، يقبلـون عليـه في أمورهم الجسام ، فيربط بين كل رباط مشدود إلى ذلك الشيخ .

وكذلك القصيدة العربية بنيت على منهاج بناءِ القبيلة . في كلِّ قصيدة عربية شـيخ هـو المأمُّ .

بنيت القصيدة العربية على أنّها من معاقد وصور وجمل كما بنيت القبيلـة علـى أنهـا من بطون وأفخاذ وأسر ==

والشيخ لا يكتفِي ببيان الجملة الأمّ ، بل ينظر في هذه الجملة فيرى في بعض كلمها مركزية دلالية ، فتكون هذه الكلمة هي العمدة في الجملة الأم .

تراه في تدبره ما رواه مسلم في كتاب «الفضائل» من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ « إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِىَ اللَّهُ بِهِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : « يَا قَوْمِ ، إِنِّى رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَىَّ ، وَإِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ» فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَدْلَجُوا ، فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ ، فَأَهْلَكَهُمْ ، وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِى وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِى وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» .

فيذهبُ إلى أن قولَه : «وَإِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ» هو جذر الحديث الشريف ، وكلمة «فالنجاء» هي جذرُ هذا الجذر ، فلمْ يكن المقصُود من الإنذار والوعيد والتهديد والجيشً والنذير العريان إلاَّ النّجاء ، ولا يزالُ صَوتُ رسُولُ اللهِ ﷺ يُصَافِحُ قُلوبَ أمّتِه بحبٍّ ورفْقٍ وَوُدٍّ ، ويقُولُ لَهم : النجاء النجاء»[1]

أبصرَ الشيخ في كلمة «النّجاء» تخليصًا محكمًا لرسالةِ كلّ رسولٍ ، ومركزًا لخطاب كلّ نبيّ قومه ، فليس ثَمَّ رسولٌ إلا أُرسلَ تحقيقًا لذلك «النجاء» فما من مقالةِ انبعثتْ من قلب كل نبيّ ، ومن قلبِ رسُول الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه

== الجملة في القصيدة هي الأسرة في القبيلة ، ولا حظ العلاقة الدّلالية بين مصطلح (الجملة) ومصطلح (الأسرة) وكما أنَّ كلَّ أسرة من مسند إليه (الزوج) و(مسند) الزوجة ، وغالبًا ما تكون متعلقات (الأبناء) كذلك الجملة .

بناء عالم البيان هو على منهاج بناء عالم الإنسان صانع هذا البيان . .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٢٥/٢ .

عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ خاصة إلا ومنتهَى الغاية هو «النّجاء» النجاء في الدنيا منْ كُلِّ مضرَّة وَمعرّة ، و«النجاء» في الآخرة من كلّ شَقوةٍ .

الشَّيخ لا يقصِرُ مجال «النَّجاءِ» الّذي يحثّ عليه سيّدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ أمَّته ويُغريهم به في النَّجاء مِن أهوالِ الآخرة ، وإن تكن هي الأعظم والأنكَى والأفدح ، إلاَّ أنّ من قبل ذلك أهوالاً في الدّنيا هو ﷺ يُغري أمته بالنّجاء منها باتباعِ ما أوحي إلَيْه من ربه سُبْحانَه وَبِحمدِه .

فإذا ما كانت طاعة ما أوحي إلَيْه ﷺ منها المنجاةُ مِن أهوالِ الآخرة ، فهي الأجدرُ بتحقِيق النَّجاءِ من أهوالِ الحياةِ الدّنيا ، وفي هذا يلفتنا الشَّيخُ إلى أنّ طاعتنا سيّدنا رسول الله ﷺ لا تحقِّق لنا السَّلامة في الآخرةِ ، فحسب بل تحقّق لنا السَّلامة في هذه الحياةِ الدُّنيا أيضًا ، وبغيرها لا تكونُ سلامة ، ولا سلام ، ولا عزة ، ولا منعة ، ولا أيُّ خيرٍ مقيمٍ في هذه الدّنيا ، فكلُّ ما قد يتراءَى من سلامٍ ومُسالمةٍ ومنعةٍ ، ومتعةٍ بمتاعِ الحياةِ الدّنيا ، ولم يكن مؤسَّسًا على طاعة ما أوحاه الله سُبْحانَه وَبِحمدِه إلى سيّدنا رسُول الله ﷺ إنّما هُوسَلام زائف ، ومسَالمةٌ زائلةٌ ، ومُتعة هالكة .

وأولى النّاسِ بالأخذ بهذا هُم من ابتلاهم الله تعالى فأقامهم مقام ولاية أمورِ الآخرين ، ولا سيَّما الولاية العامة من الملوك والرّؤساء ونحوهم ، فمَن شاء منهم النَّجاء لشعبِه منْ مضارِّ الدُّنيا صَغيرِها وكبيرِها ، ففِي هذا البيانِ النَّبوّي هداية إلى الصّراط القويم لِتحقيقِ ذلك .

وإذا كان أولو الولاية العامّة في الدّول يستهلّون أمرَهم بالقسم على الحفاظ على الوطن وسلامة أراضيه وسلامة شعبه ورعاية مصالحهم رعاية كاملة ، فإنّهم إذا لَم يأخذوا بما أوحاه الله سُبْحانَه وَبِحمدِه لرسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ فأنّهم الحانثون فيما أقسموا بِه ، ومن فعل فَقَدْ فَقَدَ شرعيته «القرآنية» و«الدّستوريّة» . وكان غاشًّا لأمته .

روى مسلم في كِتاب : «الإيمان» وكتاب «والإمارة» «في صَحيحه بسنده عَنْ معْقِلِ بْنِ يَسَارٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ «مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لاَ يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ إِلاَّ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ».

فكلُّ والٍ لم يُقم أمرَ شعبَه على ما جاء به رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ هو فاقدٌ شرعيّته في ذلك الأمر خاصّة .

وفي إيراد «مسلم» هذا الحديث في كتاب «الإيمان» وكتاب «الإمارة» دلالة على أنَّ من لَم يُحقق الاجتهاد لأمتِه والنّصحَ لهم كان إيمانُه مدخولاً . فقيامُ الوالي على رِعاية شعبِه وفق ما جاء به الوَحي هُو مِن صميم إيمانِه . فليس ذلك واجبًا وظيفيًّا ، بل هومِن قبل واجبٌ إيماني .

ويؤخذ مِن هذا أنَّ مَن حقق الاجتِهادَ لِشعبه والنّصح لهم كان ذلك ممّا يحقق له أن يكونِ من أهل الجنّة في الآخرة ، مثلما يُحقق له أن يكون في جُنّة ومَنعة وحِفظٍ ورعاية في الدّنيا . بل أمنُه وجُنته فِي أنْ يجتهد لشعبِه والنَّصح لهم ، ولا نُصحَ إلا فيما جاء بِه الوحي . فمن كانت رعايته لشعبه غير قائمةٍ من كتاب الله تعالى وسنة رسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، فهو الظّلوم الغشُوم[1].

* * *

(١) يتبين لطالب العلم من هذا أهمية النّظر في الباب الذي يورد فيه الحديث ، ولا سيّما ما في الصحيحين : ففي هذا التصنيف وترجمة الأبواب فقه الشيخ المحدث ، ومن ثَمَّ كان حسن التصنيف من العمل العلمي الذي لا يحققه إلا فاقهٌ ما يصنفه وهذا التصنيف بمثابة شرح للحديث ، ولفت لمكان العبرة منه ، في كل باب .

ولذا كان «البخاري» رَضِيَ اللهُ عَنه في هذا أفقه من «مسلم» رَضِيَ اللهُ عَنه فهو الذي يكثر من إيراد الحديثِ الواحد من عدة أبواب سواء أورده كله ، أو أورد في كل بابٍ بعضه المتعلق بالبابِ ، فكان بهذا «البخاريّ» هو الشارح المفسر الأوّل لصحيحه ، وكان في تصنيفه وتراجم أبوبه بيانٌ لمذهبه الفقهيّ .

وكان مسلم من دونه في هذا ولذا قلما يكرر مسلم إيراد الحديث الواحد في أكثر من باب ..

في الاعتناء باستخلاص «المعنى الأم» لكلّ بيان إنما هو تحقيق لبيان أمر المعاني وعلاقة بعضها ببعض ، وهذا خارجٌ مِن الأصلِ الّذِي صرَّح به عبدُ القاهرِ فِي كتابِه «أسرارُ البَلاغةِ» قائلاً : «واعْلَمْ أنَّ غَرضِي فِي هذا الكلامِ الَّذي ابتدأتُه ، والأساسِ الَّذِي وضعتُه ، أنْ أتوصّلَ إلَى بيانِ أمرِ المعانِي كيْفَ تَختَلِفُ وَتتفِقُ ، وَمِنْ أيْنَ تَجتَمِعُ وَتفتَرِقُ ، وأفصِّلَ أجناسَها وأنْواعَها ، وأتَتبّعَ خاصّها ومُشَاعَها . . .» [1]

وهذا البابُ من الدَّرسِ البلاغيّ هوالعُمدة ، وماعداه هو قائمٌ في خدمتِه ، فكلُّ نظرٍ في سَنَنِ تركيبِ العبارةِ ومنهاج تصويرها وتحبيرها لا يفضي بك إلى الوقوف على علاقتها بأترابها هو نظر خِداجٌ .

* * *

الضابط السابع :

«المُراوحة بين البيان والواقع :

البيانُ النَّبويّ هو في عُظمه تقريبٌ للبيان القُرآني الجامعِ لحاجات البشريّةِ جمعاء في باب الهداية : هداية إبانة وإعانةٍ ، وهدايةِ إصلاح وتحصين وترقيةٍ في مقامات القربِ الأقدس من رِضوان ربّ العالمين .

والبيانُ القرآنيُّ لم ينصّ على كلِّ شيْءٍ من ذلك ، كما لم يفصّل كلَّ شيْءٍ تكلَّم فيه ، فهو بيانٌ يتّسمُ بغلبةِ الإحكام ، وبغَلبة التّلويح إلى المعانِي الإحسانيّة التي لا تتناهَى ، ولا تخلق على كثرةِ الرّدّ ، ولا يشبعُ منها العلماءُ ، ولذا كان بيانُ النُّبوّة بيانًا فاعلا في هذين : تفصيل الإحكام وتجليةُ التلويح ، وفوق هذا تصريفُ ما جاء به القرآنُ إحكامًا وتفصيلاً .

---

(١) أسرارُالبلاغةِ ، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر . (م . س) ص : ٢٦ .

ومِن ثمَّ كان هذا البيان النبويّ ملتفتًا إلى واقع التَّنزيل فهمًا تطبيقيًّا ، في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجِنسٍ ، فصِيغ هذا البيانُ على نحوٍ مَن يُحسنُ التَّبصّر فيه في أيِّ عصرٍ أو مِصرٍ أو جنسٍ يُوقن أَنّ هذا البيانَ يُخاطبه مباشرة ، وكأنَّ النبيّ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وهو ينشئُ بيانه هذا ينظرُ إليك : حالِك وسياقاتِ مقامك ، وما أنت فيه .

وإذا ما كان من الحِكمة أن تُضبطَ حركةُ الواقع بما حمله البيانُ من مِعاني الهُدى ، فإنّه لمن المُحكِمِ لحسن الفهم بيانِ النُّبوّة أن تكون هناك مُرواحة بين «البيان» والواقع : فكما يقرأ الواقع في ضوءِ «النّصّ» ليقوم عَوجه ، ويسد خلله ، ويعالج أدواءه كذلك يقرأ النّصُّ في ما هو قائم في واقع كلِّ عصرٍ ومصرٍ وجنسٍ ، كلٌّ بحسبِه ، وهذا وجهٌ مِن وُجوه مَعنى قوله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ : «بعثتُ بِجوامع الكلم» . روى الشيخان : البخاري في كتاب(الجهاد) ومسلم من كتاب (المساجد) من صَحيحهما بسندهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ـ رضى الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وصَحبه الصَّلاةُ والسَّلامُ قَالَ «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ ، فَوُضِعَتْ فِى يَدِى» . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا .

فهي جوامع لما فيه الهدى لكلّ نازلة في الأمّة كلها في كلّ عصرٍ ومِصرٍ وجنسٍ .

في فقه الواقع مفاتحُ لفقه البيان النبويّ ، ومَن غفلَ عَن فِقهِ واقعِ أمتِهِ وما يمُوجُ فيها كان أبعدَ عَن أن يفهمَ بيانَ النّبوةِ فهمًا فيه إصلاحُ ما فسدَ من واقعِه ، فحليةُ أهلِ العلم بكتابِ الله سُبحانه وتعالى وسنة رسُوله عليْهِ وعلى آلِهِ وصَحبه الصّلاةُ والسّلام هي أنّهم يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِه مِنْ سُنَّتِهِ . فمن إحكام الفهم أن يكون القائم لذلك حالاً مرتحِلاً بيْن البيانِ والواقعِ .

وهذا يتجلَّي لك في مواطن عديدة جدًّا في الكتابِ بجزئيه ، فما يَعنُّ له أمرٌ يرَى له ما يُقاربُه في واقعنا ، ولا سيّما واقع الظُّلم والطُّغيان إلا ونبَّهنا إليْه ، كأنّه يستثيرُ عزائمَنا أن ترفضَ الظلمَ ، فإن الله سُبحانهُ وَتَعَالَى لا يرضَى منا أن نرضَى بأن نُظلمَ ، وقد استعاذ رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ من أن يُظلم مثلما استعاذَ من أن يَظلِمَ غيرَه ، وهذا هاد إلى أنّ الأثرَ السّيّئ على المَرْءِ حينُ يُظلم لهو عديلُ الأثر السيئ عليه حين يَظلِم هو غيرَه ، فإذا كانَ بيانُ الوحي قد بالغَ في تصوير نكالِ الظالمِ وسُوء عقباه في الدَّارين ، فإن عاقبةَ المظلومِ الّذي لا يدفع الظلمَ عن نفسِه وهو قادرٌ عديل عقابِه وهو ظلومٌ .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(المنافقون:٨)

روى أبوداود في كتاب (الأدب) من سننه بسنده عَنِ الشَّعْبِىِّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ مَا خَرَجَ النَّبِىُّ ﷺ مِنْ بَيْتِى قَطُّ إِلاَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَىَّ»(١).

وهذا الالتفاتُ إلى الواقع وربطِه بما جاء في بيان النُّبوة تجدُه حاضراً زاهراً في فقه الشيخ ومن ذلك ما تراه في فقهه حديث «لا يَزنِي الزَّانِي حين يَزنِي وهُو مُؤمنٌ» وقد عرض قول النّبيّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ : «ولا ينتهبُ نهبةً ذات شرفٍ يرفعُ النّاسُ إليه فِيها أبصارَهم حين ينتهبُها ، وهو مُؤمن» ، فيقولُ ، وقد ملأ الواقع قلبه ولسانه ألمًا وغضبًا : «وليس ببعيدٍ أن

(١) صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (١٥٤٤) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم (١٤٤٥) .

تدخلَ في هذه العِصابة المسؤولين الّذين يَستبيحون أموالَ الشّعوبِ : يَعدُّون خزينةَ بيْتِ مالِ الدّولةِ كخزينتِهم ، ولا يفرِّقُون بيْن مالَهمْ فِيه حقٌّ وما لا حقَّ لهمْ فيه ، ويُصبحونَ بذلِك مَعدودينَ من أغنياءِ العالمِ ، ويشتغلُ أولادُهم بالأعمالِ ويَنهبُون ، وينشأُ ناشِئُ الفتيانِ منّا علَى ما كان عوّده أبوه ، كلّ هؤلاءِ يدخلون فِي هذه الجملةِ »[1]

وتسمعُه وهو يقرأ قول رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » . ناظِرًا فِي أثر الكذب فيِ الأمّةِ حين يشيعُ فيها : « أمَّا الكذبُ ، فهو يَهدِي إلى الفجور ، والفُجور يهدِي إلى النارِ ، وهِدايةُ الفاجرِ إلى النارِ نترُكها له ، وإنّما المهمُّ فِي حياتِنا أنّ الفجورَ الّذي يهدِي إليْهِ الكذبُ هُو فُجُورٌ فِي واقعِ حياةِ الجماعةِ .

والحياةُ مع الفُجُرِ والفجرةِ هِي جَحيمٌ فِي الدّنيا ، والمجتَمعُ الذي يَكثُرُ فيه الكذِبُ والكَذَبَةُ لا يَصلُحُ له حالٌ ، وخصُوصًا إذا امتدَّ الكذبُ حتَى يدخلَ أجهزةَ الإعلامِ ، وأُذن لأصحابِ المالِ الحرامِ المنهوبِ من الشعبِ فِي ظلِّ أنظمةٍ فاسِدةٍ من امتِلاكِ وسائلَ إعلاميّةٍ متنوعةٍ ، وأغدقُوا أموالَهم على منْ لا يتورّعُونَ عَن الكذبِ من النّساءِ والرّجالِ ، ودخلَ الكذبُ أيضًا المنابرَ الثقافيةَ والمؤسّساتِ الثقافية ، وصارَ في الشّعبِ إعلاميون كذبة ومثقفون كذبة ، وسياسيون كذبَةٌ ، ووزراء كذبة ، وذرّ قرنُ الكذبِ في السّدةِ العليا ، أو مِمّن يُخادعُ ليصلَ إليْها ، ولك أنْ تتصورَ الكوارثَ المترتبةَ على ذلك؟ »[2]

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ١/٣٩، ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ١/٥٦ ، وانظر : ١/٦١، ٦٢ .

وأنت تقرأُ هذا الكتابَ تكادُ تقرأُ الواقعَ المحيطَ بك ، فتـزداد برؤيـة واقعـك فهمًا لما أنبأ به رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِه وصَحبِه الصّلاة والسّلامُ . وتزدادُ بصراً بما يحيطُ بأمّتك وما ينتظرها من مستقبلٍ أليـم مهـين إذا لم يقـم أهـلُ العلـم والحكمة بواجبهم في الدِّفاعِ عـن الأمّـة ، وبيـان الصّـراطِ المسـتقيم إلى العـزَّةِ والمَنعة مِن كلِّ مَعرّة في الدُّنيا ، وعذاب مُهين في الآخرةِ .

وأنت تنظرُ في ما يُحيطُ بك من أفاعيلِ بعـض السّياسـيين وسـحرة إبلـيس تفهمُ جيدًا مَخرجَ الكذبِ والفُجور فِي الخُصومةِ حتَّى تستحلّ الدّماء وتحـرقَ الموتى ، وتنتهكَ الأعراضَ . . . عمودًا من أعمـدةِ النّفـاق ، فيتجـاوز صـاحبَه طورًا لم يكن يرتضيهِ كفار مكَّة مع أعدائهم وكيـف أنّ هـذا النّفـاق قادنـا إلى جاهليّة سلوكيّة أنكى من الجاهليّة الأولى فِي هذا البابِ ، تلك كانـت جاهليّـةَ معتقدٍ ، ولم تكُ قطُّ جاهليّة سُلوك اجتماعيّ .

أرأيت كيف تحاجزَ أبو سفيان عن أن يكذبَ على رسُول الله صلّى اللهُ عليْهِ وعلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلّم وهُو كافرٌ بِه وعدوٌّ لدودٌ له ولدعوتِه حين سُئل عنه ؟

أرأيت كيـف حاجزَ خلق الرجـولـة أبـا جهـلٍ مـن أن يقـتحم علـى بنـات رسول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَـى آلِـهِ وَصَـحبِهِ وسَـلّمَ بيـتهن ليلـة هجـرة الـنبي صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ، حفاظًـا علـى العـرضِ والشـرف والرّجولةِ .

قارن هذا الأفق العليِّ الذي تسامى إليْه أبو جهل ، وما يجري من حولك من تساقط وتهالك ثلة في مستنقعاتِ الخِزي والمَعرة[1].

---

(١) هل لك أن تتبين أثر الرجولة في مواقف الخصومة مما بيْن أبي لهب وأبي جهل في خصومته مع سيدنا رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .
أبو جهل كانت خصُومته عصبية لقومه من بني مخزوم خوفًا من أن يعلو بنو عبد المطلب على بني مخزوم إن سلّم بنبوة سيدنا محمـد عَلَيْـهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ ، ولـو كـان مـن مخزوم لناصره ودافع عنه ، ولربما كان منه كما كـان أبـو طالـب مـن رسُـول الله ==

إنَّ قراءة البيان النّبويّ في ضوءِ الواقعِ مَعلمٌ رئيسٌ من معالم منهاج قراءة الشّيخِ بيان النّبوَّة ، وهو لا يدعُنا نستنبطُ ذلك من فعله بأنفسنا ، بل هُو يجهرُ بذلك لِعظيم أهميَّته . يقولُ مِن بعدِ أنْ عرَض لصورٍ مِن واقعِه الَّذي يُحيطُ به : « وإذا استخرجتَ مِن كلامِي هذا حرفًا واحدًا لا يدخلُ فِي صُلبِ معاني كلامِ رسُول الله ﷺ ، فاطرحْ كتابِي ، ولا تقرؤه ، وحسبي منك أن تستغفر الله لي »[1]

* * *

==صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ . أما أبو لهبٍ ، وهو الأشرف نسبًا : ابن عبد المطلب أخو أبي طالب والعباس والحمزة ، فما الذي حاجزه عن أن ينصر؟ ما الذي دفعه إلى أن يفجر في الخصُومة ، وهو الأوحد الذي لم يناصر قومه زمن الحصار في الشعب؟

إنها الخسة وفناء الرجولةِ ، وكأنّي بأم قبيح زوجه هي التي غرستْ فيه تلك الخسة .

ولعلها لما كانت صَانعة هذه الخسة فيه ذكرت معه في سورة « المسد » (وامرأته حمّالة الحطب) وكأن هذه العبارة كناية عما كانت تصنعه من إيقاد أوار الخسة والدناءة في زوجها ، ولم تذكر زوج كافر أو منافق معه ، أرأيت رأس النفاق في المدينة لم تذكر زوجه في آية أو حديث . قلت هذا لأبين لك أثر الخسة في الناسِ ، وأن غيابَ الرجولة أنكى وأضر من غيابِ الإيمان في حياةِ الأمة ، فرب كافر ليس بخسيس خير ممن ينتسب إلى الإسلام وهو أنموذج للخسة والمهانةِ والضّعة .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحيحِ مُسْلِمٍ ٤١٨/١ .

يلفتنا الشيخ في مواضع عدة إلى أن لا نتوهم أن ما يجري في قولِه من بيانِ واقعِ الأمَّة أنه مباعد ما يجري فيه بيان النّبوّة ، فيستفزك لترى وثيق الوشائج بيْنَ مَا يجرِي فيه كلامُه وما يَجري فيه بيان النّبوّة .

وهو بهذا يهدينا إلَى أن لا نكونَ قاصرين بصائرنا على أن لا ترَى إلاَّ ما كانت علاقته ببيان النّبوة علاقة مباشرة ، كأنّه منطوق البيان ، بل علينَا أن نمُدَّ بصائرَنا لترى ما له بذلك البيان رحمٌ غائرٌ متينٌ ، فالشأنُ في طالب العلم أن يكونَ حديدَ البصيرةِ ، ليدركَ طَلبته التي قد تكون من الشوارد والأوابد . وملاحقة النوافر والشوارد والأوابد صنعة الأماجد

الضابط الثامن :

« ضبطُ سلطانِ العَقلِ في التَّأويل :

إن يكن العقلُ الرَّاشدُ هُو الحاضرُ في تلقّي البيانِ وفهمِه ، فإنّ حضُورَه هذا لا يمنحُه السُّلطانَ المُطلقَ والحقَّ في أن يتولّج في تأويل كلّ بيانٍ ، فثَمَّ آفاقٌ في البيانِ هُو عنها مُحاجزٌ مراجعةٌ وتأويلاً ، وهو المكلّفُ بالتّسليمِ والإذعانِ لما جاء به الوحيُ ، وكان فوقَ طاقاتِه ، فما كلُّ ما يَسمعُ القلبُ يكونُ للعقلِ أن يتولّجه مُراجعًا ومؤوّلاً وقابلاً ورافضًا . وهذا ما يقضِي به منطِقُ العقلِ الفطريِّ . والذين يريدون أن يجعلوا للعقلِ سلطانًا على كلِّ شيْءٍ وعملاً في كلّ شيْءٍ هُم أنفسُهم يتمرَّدون على هذا العقلِ ، لأنّ مَنطقَه قاضٍ بأنَّ ذلك مِن الجَوْرِ ، ومن التّكليفِ بما لا يُطاقُ وبما لم يُخلق له ، فهوأشبَهُ برجلٍ يحرثُ الأرضَ بقلمِه ، ويكتبُ بفأسِهِ ، وذلك هو الحُمقُ المَكين .

والشَّيخُ هو الحفِيّ بتقرير هذا ، والاستمساكِ به في مجالات بيان الوَحْي عَنْ غَيبٍ طليق ، ولا سيّما ما يتعلّقُ بأفعال الله تعالى وصِفاتِه ، وهُو يَجري فِي تلقي هذَا البيانِ وفهمِه على الحقيقةِ الصّرفة المَعصُومة مِن التَّأويل والنَّسخ والتَّخصيص ، فهي من البيانِ المُحكَم الذي تأويلُه وقوعُه لا صرفُ معناه عن ظاهره [1].

وهُو في مواضعَ رأى فيها أعيانًا من العلماءِ يَسلكون فيها مسلكَ التَّأويل لِما هُو من الغيبِ لا يذهبُ إلى تسفِيهٍ أوْ يجهرُ بتخطِئةٍ ، كما يفعلُ بعضُ النَّابتة ، بل يذكرُ مذهبَهم ، ويذهبُ هُو إلى غيره ، ليقيمك أنتَ مقامَ المختارِ طريقَه ،

---

(١) لا أريد بالظّاهر هنا ما سَفر ، بل أُريدُ به ما عَلا على ظهر العبارة من قوتِه فكان ظهيرًا ، وهذا غير « الظاهر » في مصطلح الأصوليين . .

لأنّه يريدُ أن يُحرّر القارئ مِن التَّبعيةِ الجرداءِ مِن التّبصرِ واتخاذِ الموقف ، وهذا نهجٌ فَتِيٌّ فِي صِناعة الرّجال[1].

في شرحه قولَ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ . قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ : فَذَاكَ لَكِ» ذكرَ أنَّ ممّن يؤخذُ عنه العلمُ ذاهبٌ إلى أنَّ الرَّحمَ قرابةٌ ونسبٌ ، وليست إنسانًا يقومُ ويستعيذُ ويخاطبُ ، وأنَّ كلّ ذلك تمثيلٌ وتصويرٌ [استعارة تمثيليّة] وأنَّ المعنَى والمغزى هُو بيانُ عظيمِ شأنِ الرّحمِ وعظيمِ الثَّوابِ في وصلِها ، وعظيمِ العقاب في قطعِها ، ومِن أولئك الأعيان القاضِي عياضٌ رحمه الله تعالى وتأييد النَّوويّ مقالَه .

ويلفتنا الشَّيخُ إلى أنّ المجازَ والتَّمثيلَ هنا ليس في آياتِ الذّات والصِّفات ، وأنَّه ممَّا يقلُّ التَّنازعُ فيه ، وكثيرٌ من أهلِ السّنة يقُولون بِه ما دام ليس في الذّاتِ والصِّفات[2]

---

(١) كان من منهج الإمام أبي حنيفة أنه لا يقوم في تلاميذه مقام الملقن الشاحن صدورهم بما فِي صدره ، فيحيلهم إلى أوعية يحفظ فيها علمه من بعده ، كلا ، لم يرهم صناديق حفظ ، رأى فيهم مصانع معرفةٍ ، فلم يكن يُملي عليهم ما عنده ، كان يجلس فيهم ، ثُم يطرح مسألة يطلب منهم أن يتكلموا ، وأن يتناظروا ، وهو يسمع ، فإذا ما فرغوا عقب على كل ، ثم أبان الأعلى والأولى .
كذلك صَنعَ أبو حنيفة تلاميذه . .
ينظر جامع مسانيد الإمام الأعظم . تأليف أبي المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي (ت:٦٦٥هـ) ط : الهند ، نقلا عن بحث : الإمام أبو حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنه وجهوده المؤسسة للفكر الأصولي ، للأستاذ الدكتور : محمد إبراهيم الحفناوي . نشر : مجلة دار الإفتاء المصرية . العدد ((٢٤) ربيع الأول ١٤٣٧هـ) ص٣٠ .

(٢) مصطلح «أهل السّنة» من المصطلحات التي لم يجمع العلماء على تحرير مدلولها تحريرًا جامعًا مانعًا . فمنهم من يدخل في أهلِ السنة جماعة الأشاعرة ، ومنهم من يدخل فيهم الماتريدية . . . ==

ثم يلتفتُ إلى الوجه الآخر قائلاً : « ولك أن تقول : إنّ صرفَ هذا إلى التمثيلِ يجعلُ قوله سُبحانه وتَعالى للرّحمِ : « أصل مَن وصلك وأقطع من قطعك » من باب « التَّمثيل » الّذي يُرادُ بِه تعظِيمُ شأنِ الرّحمِ وتَعظيمُ أجرِ واصِلِها ، وتعظيم عقابِ قاطِعها ، وهذا شيءٌ يَضعفُ به المعنى ؛ لأنَّه لا شَكّ أنّ المرادَ أنّ الله يصلُ واصلها ويقطع قاطعها حقيقةً ، وليست مجازًا »[1]

فهُو لمْ يَشأ أدبًا مَع الأعيانِ مِن العلماءِ أنْ يصرِفَ وجهك عن مقالهم ، ولم يشأ أن يقول لك إنّ هذا منهم جَرأة على اقتحامِ الغيبِ ، ولكنّه لفتك إلى أنّ الذي قالوه فيه إضعافٌ للمعنى ، أي أضعاف أثرِه في قلوبنا ، وكأنّه يقول لك هذا أقلّ ما فيه ، وإذا كان ثمرة مقالِهم إضعافًا للمعنى في صدورِنا ، فإنّ الرَّغبة عنه أوفقُ ، كلّ ذلك في تلويحٍ لطيف ليعلّمنا أدبَ الحوارِ مع من نختلف في ما ذهب إليْه . وكذلك شأنُ العلماء وطلبة العلم .

ثمَّ لا يَدعُك ، بلْ يُبيّنُ لك قدرَ الذّهابِ بالكلامِ على الحقيقةِ ، ويعرضُ لك بعَضًا ، ثم يقُول : « صَرفُ كلّ ذلك إلى التَّمثِيلِ يذهبُ بكثيرٍ مِن هذِه المعانِي الجليلةِ فِي هذا الحديثِ الذي هُوَ مِن عَطاءِ اللهِ لنا جميعًا ... »

يُرشدُك إلى أنَّ القولَ بالتَّمثيلِ فِي مثلِ هذا مَخرجُهُ عدمُ المُحاجزةِ بيْن

== والَّذي أذهبُ إليْه أنَّ أهلَ السنة والجماعة هم من كانوا على ما كان عليه أهل القرون الثلاثة الأُول الذين يؤكّدون أنَّهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابِه أو في سنة رسوله صَلّى اللهُ وسلّم عَلَيْه وَعلَى آلِهِ وصَحبِهِ ، وأنهم يتخلون في إثبات الصفات والأفعال عن أمرين :

الأول : أنّ معناها مفوضٌ علمه إلى الله تعالى وحده . ذلك عندهم غيرُ قويم ، بل علمها ممّا هو مُحصلٌ للعبادِ . ولا يقولون بالتفويض في المعاني بل في الكيفياتِ .

والآخر : التمثيل والتكييف ، ولا يقول في مثل حديثِ « الرحم » هو من التمثيل والتّصوير ، أو ما يسميه البلاغيون « الاستعارة التمثيلية » . . .

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦٣/٢، ٦٦٤ .

رُؤية خلقِ الرَّحم وخلقِ الأرضِ مثلا وأنّهما معًا ممّا لا يُخاطب دون التفاتٍ إلى أنَّ المخاطِب إنّما هو الله تعالى ، فخلقُهما : الرّحمِ والأرضِ خارق للعادة (عِند البَشرِ) وكذلك خطابُه سُبحانه وَتَعالَى لهما خارقٌ للعادة (عند البشر) فكلٌّ على الحقيقة لا التمثيل .

من قال بـ« التمثيل » فرَّق بين الفعلين : الخلقُ والمخاطبة من جهةٍ ، وقارب بين خطابه سُبحانه وَتَعالَى لهما وخطابنا لها ، فجعلهما معًا على التَّمثيل ، وهذه مقايسة مَع الفارق ، فالشَّيخُ لفتنا إلى مَخرج المُجاوزة ، وكأنَّه يبصّرنا كي نتعلمَ ، فلا نسلكُ مثل هذا المسلك . وهذا من صِناعة الرّجال . .

ويجهرُ لك بالذي هو فيه قائم : « ما دُمنا قَبِلْنَا أنَّ الله خلقَ السّمواتِ والأرض ، وقالَ لَهما ائتيا طوعًا أوْ كرهًا ، فقالتا أتينا طائعين ، فلا بدّ أن نقبلَ أنّه قالَ ذلك على وجهِ الحقيقةِ ، وقالتْ له على وجه الحقيقةِ . . . . وحمل خطاب الخالق علَى خِطابِ الخلقِ أقُول هذا ليسَ بواجبٍ ؛ لأنّ أمرَ الله فِي خلقِه يتجاوزحُدودَ المألوف ؛ لأنّ الخالق نفسه مُتجاوز حدود المألوف ...

وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودع ما لا تراه ، ولا حرج عليْك ، وأرجو أن أكونَ أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم »[1]

الشّيخُ يلفتك إلى مَخرجِ ما قام فيه : أبان لك أنّ منطقَ العدلِ والإنصافِ قاضٍ به : لا تجعل للعقل فيما هو خارجٌ عن مألوفِه سلطانا ، ولا تكلْ بمكيالين :

تجعلُ خلق الرَّحم والأرض ... خارجًا عن سلطان العقل ، وتجعل خطابهما خاضعًا لسلطانِه ، دون أن يكونَ هنالك حاملٌ صحيحٌ على تلك التّفرقة . هذا مجاوزةٌ في منهجيّة التّفكير . الخللُ هنا خللٌ في المنهج الفكريِّ .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم : ٦٦٤/٢، ٦٦٥ .

هو يقول لي إنّ الخلل في منهج التفكير لا يستوجبُ تفسيقَ من ابتلي به تفسيقًا عقديًّا ، وإن كان تفسيقًا منهجيًّا في التفكيرِ ، لأن الفسُوق العقديّ مخرجٌ من مِلّةِ الإسلام ، والفسوق المَنهجي تفكيرًا داخلٌ في الخطأ ، وكلُّ ابن آدم خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التّوابون ، فأقصَى ما يُمكن أن يُوسمَ به أنَّه أخطأ في اختيار السَّبيل الأوفق في تقديسِ الله سُبحانه وَتَعالَى ، وكذلك الفسوق السلوكي لايُخرجُ من الملة[1]

ولذا تجد الشّيخ يقول : وحملُ خطاب الخالقِ على خِطابِ الخلق أقول ليس بواجب . . .

لم يقل إنّه خطأٌ أو ضلالٌ ، أو جائز بل قال : « ليس بِواجبٍ » ، فلفتني بهذا إلى أنّ الَّذي قال بِه لم يكن ثَم ما يَحمله عليْه ، وكان لمن سلكه مندوحةٌ عنه ، وهذا من عظيمِ إجلالِه لأهلِ العلمِ الّذين يقُولون ما لم يذهبْ هو إليْه ، وهذا مِن مسلكِه في تربيتنا ، كذلك نتعلَّم منه أعزَّه الله تعالى بطاعتِهِ .

ثم انظر قوله : « وهذا ممَّا لم أقرأه في كلامِ مَنْ يُؤخذ عنهم العلمُ ، فخذْ ما تراه ودعْ ما لا تراه ، ولا حرجَ عليْك ، وأرجو أن أكون أيضًا مِن الذين لا حرج عليهم ».

هو بقولِه : « وهذا ممّا لم أقرأه . . . » لا يريدُ فيما أفهم أن يقول لك إنّه أوّلُ من قال بِه ، وأنّه أبو عذرته ومن اجتهاداته الّتي سبق بها الأعيان . ليس هذا

---

(١) للفسوق ثلاثةُ أنواع :

« فسوقٌ عقديٌّ مُخرِجٌ من الملَّة وهوبِحمد الله تعالى قليل في المسْلمين ».

« فسوقٌ منهجيّ في التفكيرِ لا يُخرجُ من الملة ، ويُدخل صَاحبه في دائرة الخطأ ، وهو غير قليلٍ في من لا يتثبتون من النابتة في العلم ، وغير قليلٍ في من يُوسَمون بالمفكر الإسلامي »

« فسوق سلوكيٌّ أخلاقيّ لا يُخرج من الملة ، ويدخل صَاحبه في الخطيئة وهو الكثير في الناسِ »

من أدبه أعزه الله تعالى ، بل هو يريد أن يقول لي إنّي أنا أحملُ مسؤولية هذا إن كان فيه ما يؤاخذ . فلا تتحرّج في أن ترغبَ عنه إن رأيتَ غيرَه الأعلى .

تبصّر كيف أنَّه يقدِّر عقلك وقدرتك على أن تُبصرَ بنفسِك السّبيل ، وأن تختارَ الذي ترَى أنت لا الذي يراه غيرك فقد أنعم الله تعالى عليك ببصر وبصيرة كمثلِ غيرك .

هُو لا يحملُك على أن تجرى كمثل ما جرَى ، لأنّه هو لم يجرِ على ما جرَى عليْه القاضِي عياضٌ رحمه الله تعالى ، فكيف يَحرم قراءَه ممَّا أباحه لنفسِه؟ لا يكونُ . كأنّي به يقول : سمعنا وأطعنا لوصية رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّم لَيَزِيدَ بْنِ أَسَدٍ رَضِي الله عنه ولكل عاقلٍ : « أَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ » .

كلُّ ذلِك مسلكٌ من مسالك صِناعة الرِّجال ، والشيخُ هو الحفِيّ بهذه الصّناعة الثَّقيلة النَّبيلةِ .

* * *